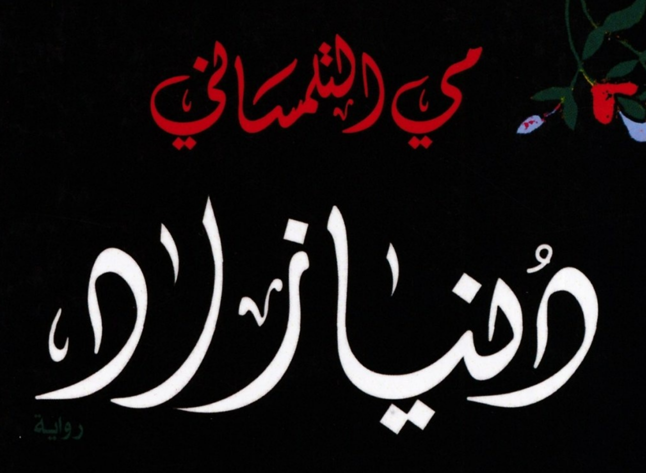


مي التلمساني

دنيازاد

رواية

دار الشروق



«كل تلك العذوبة، كل هذا الشجن، كل هذا الشعر والقدرة على التحكم في مادة الرواية، هذه المقومات تجعل من رواية «دنيا زاد» علامة مضيئة في الرواية العربية، وفي أدب المرأة على وجه خاص».

د. علي الراعي

«تجربة ذاتية محاطة بالخيال، تحرر النص من الذاتية المفرطة ليصبح عملا فنيا. «دنيا زاد» نص يعيد صياغة تجربة الأمومة ويخلخل صورتها كمؤسسة تستخدم ضد المرأة».

د. شيرين أبو النجا

«إن حقول الدلالة وعلاماتها النصية بثقلها وخفتها وتنوعها تظل مفتوحة على البدايات والنهايات في هذه الرواية التي تعد برأيي إحدى الروايات الفارقة في نسيج القص العربي».

جمال القصاص

مي التلمساني (١٩٦٥-): كاتبة مصرية تقيم في كندا حيث تعمل أستاذا للدراسات العربية والسينمائية بجامعة أوتاوا، وهي حاصلة على وسام الفنون والآداب من دولة فرنسا برتبة فارس. «دنيا زاد» هي روايتها الأولى، ترجمت إلى ثمان لغات أجنبية وحصلت على جائزة عوليس الفرنسية لأفضل رواية أولى في حوض البحر المتوسط عام ٢٠٠١، وجائزة الدولة التشجيعية لرواية السيرة الذاتية عام ٢٠٠٢. لها ثلاث روايات أخرى، هي: «هليوبوليس» و«أكابيللا» و«الكل يقول أحبك»، وثلاث مجموعات قصصية: «نحت متكرر»، «خيانات ذهنية» و«عين سحرية»، وكتاب يوميات بعنوان «للجنة سور» عن تجربة الهجرة إلى كندا، فضلا عن عدد كبير من الأبحاث والدراسات الأكاديمية بالعربية والإنجليزية والفرنسية.







www.shorouk.com

مي التلمساني

دنيازاد

صدرت الطبعة الأولى عن دار شرقيات سنة ١٩٩٧

حائزة على جائزة الدولة التشجيعية في رواية السيرة الذاتية عام ٢٠٠٢

دار الشروق

دنيا زاد

مي التلمساني

الطبعة الأولى ١٩٩٧

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٢٢

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: هاني صالح

رقم الإيداع ٢٢٧٤/٢٠٢٢

ISBN 978-977-09-3747-1

٧ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

التلمساني، مي،

دنيا زاد/ مي التلمساني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٢

٧٨ ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٧٤٧١

رقم الإيداع ٢٢٧٤/ ٢٠٢٢

١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

المحتويات

إلى ابتسامة شهاب الدين

ووجه دنيا زاد..

سلة ورد

جاءت «دنيا زاد» إلى الغرفة ٤٠١ للمرة الأولى والأخيرة تودعني في أكفانها البيضاء الصغيرة. عدة لفات من الشاش النظيف وثلاثة أربطة، عند الرأس والقدمين وعند الخصر. وملاءة كبيرة تضاعف من حجم الجسد النحيل.

في حرص، أطل وجهها تحت غطاء من القطن الطبي. طلبت من الممرضة إضاءة الغرفة التي ظلت معتمة رغم كل شيء، ونظرت إلى الوجه المستدير المائل للزرقة. العينان مسدلتان والأنف صغير والفم يشبه الهرم، شديد الزرقة.

كانت تحيا هناك رغم كل شيء، بذلك الوجه الهادئ وذلك الرأس الذي امتنعت عنه الحياة، (والذي سرعان ما تمحوه الذاكرة). كان منذ أيام قليلة فقط يندفع خارجًا من رحمي إلى العالم الذي لم يكن قد تأهب بعد لاستقباله.

لم أقل سوى كلمة وحيدة مقتضبة ـ كانت تشبهني. ثلاث ممرضات يحطن بي، وزوجي الذي لم يكن قد رأى وجهها من قبل ـ وكلمات رثاء بلا معنى. إحداهن تربت على يدي، وربما أيضًا على جبيني. خلعت نظارتي وندمت لأني لم أشعر بخروجهن، ولم أنظر فيما بعد من النافذة. عاد زوجي إلى الغرفة ثم تركني ورحل مع الجمع المزدحم خارج الأبواب. هذه المرة بكيت بصوت عالٍ وقلت: كانت جميلة. لم أستطع أن أسميها. كان اسمها خاليًا من أي إشارة إلى جسدها النحيل الراحل وإلى رائحتها التي لم تزل تملأ فضاء الغرفة.

صبيحة ذلك اليوم. الأربعاء في التاسعة أو بعد ذلك بقليل. تركت الغرفة ٤٠١ وأشرت إلى الممرضة. قلت: سوف أخبرها الآن، يجب أن تستعدي. ثم عدت إلى الغرفة وقلت: كل شيء انتهى. بكينا معًا. هذه المرة بكيت بحق كما كنت أتمنى، منذ يومين، بين ذراعيها، وكنت خائفًا. منحت رجل الأمن بعض المال. استدعى زميله على عجل. فأخرجت ورقة مالية أخرى أحسبها عشرين جنيهًا، واصطحبت الممرضات الثلاث، بثيابهن الزرقاء ووجوههن الملونة التي استقر فوقها بعض توتر الخطيئة. حملت إحداهن الكفن الصغير، وأسرعنا جميعًا إلى الغرفة حيث تنتظرني زوجتي. كل شيء إذن يحدث كما أرادت.

منحني الوجه الساكن طمأنينة لم أشعر بها طيلة اليومين الماضيين. في ضوء النيون الباهت حملقت بضع ثوانٍ أخرى قبل أن يسرعن بتغطية الوجه.

كان أخو زوجتي الأكبر ينتظرنا خارج الباب. منتصبًا كأبي الهول. حزينًا كالجُب. وربما كان يصلي في صمت، كما ينبغي. استبقيته لحظة أخرى ريثما أطمئن عليها. ثم وضعنا الكفن في سلة اشتريتها من بائع زهور قريب، وغطيتها بالورد فصارت مثل حديقة صغيرة أينعت لتوها. وكنا في آخر شهور الربيع.

«دنيا زاد».. قلت لأمي حين أفقت من أثر المخدر إننا سوف نسميها هكذا. فقالت: كما تشائين. لم تكن ترغب في هذا الاسم. كان زوجي يعلم أننا لن نسميها حقًّا إلا عند كتابة شهادة الوفاة. وكان أخي يؤمن بالقضاء والقدر فلم يشأ أن يذكرني به. وصار الجميع ينظرون إليَّ في صمت.

* * *

في الرابعة من صباح الاثنين صحوت على الألم. ورحت أدور في البيت. لم أشأ أن أوقظ أحدًا. حاولت النوم في السادسة وصحوت نهائيًّا في الثامنة، قلت لزوجي. ألبسنا ابننا الوحيد ملابسه وهو نائم. ذهبنا إلى الحضانة، ثم إلى البنك، ثم إلى المستشفى؛ حيث أمروا لي بالدخول. وكان الطبيب مهذبًا كعادته.

الغرفة ٤٠١ نظيفة. خلعت ملابسي ورحت أدور فيها لأسكِّنَ الألم، الذي صار يتزايد. حاولت أن أكتم صراخي حتى انفلتت مني صرخة أولى، وكان زوجي يحثني على تنظيم أنفاسي. جاء الطبيب المساعد عدة مرات، وجاء طبيبي أيضًا. وقال الجميع: ننتظر.

أما «دنيا زاد» فقد كانت تبحث عن مخرج من مأزقها الحياتي الأول. أنصت الطبيب عشر مرات لصوت القلب. كان شيء ما يزعجه. وكنت أعلم أن شيئًا ما يحدث رغم إرادتي.

حقنة مخدر في النهاية أسكَتَتْ بعض ألمي. فاحتملْتُ نصف الساعة الأخيرة قبل الانتقال إلى غرفة العمليات (هل تأخر الطبيب؟). لم تكن الغرفة معدة لاستقبالنا. نزفت دمًا ثلاث مرات. دفقات ماء ودماء هائلة. انتقلت من فراش إلى فراش آخر، ثم إلى فراش غرفة العمليات. أحسست بالمخدر يتسلل عبر الأنف. والرأس يندفع عبر الجرح الذي صنعه الطبيب دون إبطاء، والماء الساخن يغمرني. كل شيء غائم الآن. الضوء الأخير قادم من النيون الأبيض والهاجس الأخير: هل هي حقًّا.. بنت؟

خمسون دقيقة الآن في غرفة العمليات. لا أسمع صوتًا، والصمت المطبق حول مقعدي يعزلني عن العالم. فوق الباب لافتة ينيرها ضوء أحمر خافت. غرفة عمليات محرمة. ثلاثة أطباء جاءوا إليَّ، هي بخير، والطفلة؟ ماتت. لم أبكِ، انتظرت حتى أعرف المزيد. وبدأ عقلي يعمل كالمطرقة. رأيت زوجتي تخرج من الغرفة كأنما لتودعني فقط. بروز وجنتيها ودوائر سوداء حول العينين علامات رحيل أكيدة.

ساعتان معها في الغرفة. الممرضة تروح وتجيء. تضع حقن الجلوكوز والدم في أوردة كل يد، وتضرب الرأس بإصبعها ضربات خفيفة. فتفتح هي عينيها وتطلق آهة قصيرة (ما الذي يدور في هذا الرأس الآن؟)، وجلد الوجه مشدود فوق عظام

الوجنة البارزة. العينان الجميلتان غائرتان في صمت موحش، والشفتان ذهب لونهما وصارتا بيضاوين بلون الموت.

طلبت من أخويها الحضور.. تأخرا.. ثم جاء الأصغر أولًا أخبرته بأن الطفلة قد ماتت.. بكى.. وبكيت. وقلنا نخبرها تدريجيًّا كما أشار الأطباء الثلاثة.. ثم جاء الأخ الأكبر.. بكينا أيضًا. واتفقنا على تفاصيل أخرى.. لا أذكرها الآن، لكنني أعرف أني لم أعد أستطيع البقاء وحيدًا.

أحطنا جميعا بالفراش الذي لا يضم سوى جسدها الساجي.
لا سبيل الآن لأن تضمهما ذراعاي. وربما أيضًا.. غدًا.

حين كنت أضم زوجي آخر الليل كانت تركله فيضحك. صدى ضحكاته الآن يملؤني. وأشعر أن الرحم الخاوي يتحرك مع انتظام أنفاسها التي لم تملأ أنفي برائحتها المعطرة كرائحة الأطفال، لم يسمح أحد بأن أراها تتنفس.

كنت قد اشتريت لدنيا زاد فراشًا جميلًا، ألوانه زاهية، يغطيه التُّل الأبيض والدانتيل. واشتريت أيضًا أشياء كثيرة تنتظرها في أحد الأدراج، مطرزة بألوان الطيف وبالانتظار. حذاء صغير وجوارب في حجم الإصبع وضعتها في حقيبة المستشفى منذ شهر أو يزيد. أردت أن ترتدي بعضًا من أشيائها بدلًا من ملاءة الكفن المعهودة. لكنهم بالطبع قاموا بواجبهم كما ينبغي.

على شاشة صغيرة انقسمت نصفين، رأيتها مرتين. في شهرها السادس، ثم في شهرها التاسع. رأس كبير.. عظمة الفخذ.. قال الطبيب:

«بنت» بالإنجليزية، قلت: أسميها «زاد»، ثم قلنا أنا وزوجي: «دنيا زاد» كما في «ألف ليلة وليلة». أمضت في المستشفى ليلة واحدة. والألف الباقية؟ أمضيها في ذكرى اسم لم أنطق به سوى مرة واحدة، وربما مرتين.

أفيق من أثر المخدر على صوت زوجي ووجه أمي، وضوء خافت يتسلل من حمام الغرفة. قالوا إنها بنت. وقالوا: عندها نسبة عالية من «الصفرا». هي في الحضانة إذن.. لن أراها الآن إذن.. أنتظر إذن.. ثم قالوا: لم يصل الأكسجين إلى المخ. وقالوا: يحاولون. ثم في الصباح التالي: إن لم تمت عاشت «متأخرة». تنام في سكون، وتنتفض بين الحين والحين في حركات غريبة. سائل أبيض ينساب عبر فمها الصغيرة. قال أخي إن فمها يشبه رقم (٨). وقال أخي الثاني (بعد ذلك): ليرحمها الله. ولم أصدق. كان كل ما علق بذهني هو أن الصفراء ليست مرضًا قاتلًا، أو هكذا ظننته. فليدفعوا ببعض الأكسجين إلى المخ، ولتنهض وأعطيها ثديي لتفطر. لم أصدق رغم وجه زوجي الشاحب. ورغم مواساة الجميع الصامتة، التي أدرك الآن مغزاها.

صباح الثلاثاء اتصلت بأمي هاتفيًا. قلنا: لنذهب الآن لإعداد المقبرة. أذكر آخر قصة كتبتها زوجتي. تبدأ هكذا: «اشترينا مقبرة». ولم نكن قد اشتريناها بعد. ذهبنا إلى مقابر الأسرة الكبيرة. في الطريق، لم تبكِ أمي، لكنها قالت أشياء كثيرة لا أذكرها. كنت متعبًا، وكنت أراجع في ذهني تفاصيل

دقيقة. حول ما أخبر به زوجتي كل يوم عن حالة البنت التي كانت ترقد منذ الأمس في ثلاجة المستشفى.

قلت: أخبرها في المساء بأنها ماتت في الحضَّانة لنقص الأكسجين. وقال الطبيب: صباح غد هذا أفضل. تناولت بعض الطعام وكذلك زوجتي. وكانت ترسل الجميع إلى الحضَّانة للاطمئنان على صحة البنت. وكان الجميع يخرجون إلى الممر وينتظرون أمام النافذة.

في المساء أردت لها النوم الذي جاء يحبو. علمت فيما بعد أنها أفاقت على صوت جلبة في الممر.

نمت رغم كل شيء مساء الثلاثاء ساعتيْن. صحوت وبكيت ثم عاودت النوم. كان الطبيب قد أمر لي بدواء أتناوله في أثناء الطعام، علمت فيما بعد أنه يجفف اللبن في الثدي. حين أفقت بين إغفاءتين كانت جلبة ميلاد جديد تعم ممرات الدور الرابع، وكان الطبيب يهنئ الجميع بمولودة جميلة. قال: بعد ساعة نأتي بها إلى أمها. اختلطت أصوات في الممرات أدركت من بينها صوت الأب. وصوت طفل صغير يغار من تلك المولودة الجديدة. وصوت الممرضة الليلية. وضحكات كثيرة.

في الغرفة المجاورة فرح أكيد. الصمت يعم غرفتنا. كان زوجي نائمًا، وارتسمت في فضاء الغرفة صورة غائمة لـ«دنيا زاد» التي لم أكن قد رأيتها بعد.

* * *

صباح أربعاء مشمس. فتحنا النافذة. وانطلقت أصوات العصافير. أعددنا حقائبنا للرحيل. طلبت من زوجي أن يطمئن على «دنيا زاد». حذرني: ربما تكون قد ماتت الآن. اتفقنا أن أراها رغم كل شيء. قلت إنني أفضِّل أن تموت على أن تحيا عذابًا لا يحتمله رأسها الصغير. كنت أحاول فقط أن أطمئنه، وكنت أتمنى أن يكون رأسها هذا قد عاد إلى حالته الطبيعية بعد تغذيته بالأكسجين. انتظرت أن يأتي إليَّ بها في ثوبها الأبيض المطرز... ابتسمت واطمأننت إلى هواجسي، وإلى رقة الهواء القادم من النافذة. يوم صحو... لا أحد يموت اليوم.

جاء في تقرير الطبيب أن الوفاة قد حدثت داخل الرحم نتيجة انفصال تام في المشيمة. حملت الورقة في جيبي، وذهبت إلى مكتب الصحة القريب. حصلت على تصريح بالدفن، وأسرعت عائدًا. كانت تنتظرني كعادتها. الستائر مسدلة. والغرفة غارقة في صمتها. ينتظر الجميع خارج الغرفة ٤٠١، ويتجاذبون أطراف الحديث من وقت لآخر. لم يُكتب في الأوراق اسم للبنت.. لذا لم أستطع أن أنطق اسمها الذي أردته منذ سنوات.

«زاد الرمال» التي لم تكن عيناي قد رأتاها بعدُ.

أتذكر أن زوجتي ذهبت لطبيب «السونار» مرتين. لم أذهب معها ولا أذكر الآن سببًا لذلك. ذهب معها شهاب الدين. وشاهد صورًا مختلطة نظمها في عقله الصغير. ويبدو أنه أحبها دون أن يعلم. ودون أن يدري، صار الآن وحيدًا من جديد.

تركني زوجي فأدرت وجهي صوب النافذة، خائفة. أترقب وأنصت. عاد وحيدًا وجلس عند حافة الفراش: انتهى كل شيء. احتضنني. كتمت صراخي. اليوم كاذب. والشمس كاذبة. والعصافير أيضًا. لا صحو اليوم. قال الجميع: كنت مهددة بالموت. نزيف مفاجئ، ونصف ساعة أخرى في غرفة العمليات، واحتمال تسمم، وبضعة أكياس من الدم تتدلى إلى جواري، وجلوكوز وحقنة في الوريد. ولا أصدق. يزول الألم وتتهاوى احتمالات الخطر. ويبقى انتظار البنت التي جاءت رغم كل شيء... ولم يكن جوفي يوما مقبرتها.

بعد قليل جاءت ممرضات ثلاث. ولفافة بيضاء صغيرة. تم كل شيء في سرية تامة. لا يجب أن ننتهك جسدًا بعدما ضمته الأكفان. حذرني زوجي. قال: لا صراخ. أردت حملها بين ذراعيَّ. رفضوا، ومضوا بها دون أن أشعر بأنهم قد فعلوا. ظلت معي إحدى الممرضات. ثم طلبت منها أن تتركني وحدي، قلت: أنا بخير.

كانت بخير حين تركتها. لم يعلُ صراخ في الغرفة. ولم أتركها تحمل الكفن الصغير. أردت حمله بنفسي ولم أفعل. أسرعنا. وكان عقلي قد تدرب على الفعل. في الطريق إلى المقابر، حملتنا سيارة الأخ الأكبر في هدوء. جلست إلى جواره بينما استقرت سلة الورد بجوار أمي في المؤخرة. موكب صغير لا يضم سوانا. فكرت فيما سيفعله الصبية الصغار حين نبلغ المقبرة. وانتابني قلق مفاجئ لما يمكن أن يحدث فيعرقل مهمتنا.

هدوء غريب. المقابر خاوية. والطرق المتعرجة تثقل عليها نهاية ربيع حار. هبط الكفن وحيدًا. وتركت سلة الورد للأطفال الصغار.

* * *

جاءت أم زوجي.. ثم جاءت أمي. فأعددنا العدة لمغادرة المستشفى. يومان من عمر الزمن. وشبح موت محقق يطل من مسام الغرفة.

عند باب المستشفى، لمحت رجل الأمن بقميصه الأزرق. منذ يومين كان يبتسم لي. وكنت أدور في رواق المستشفى أنتظر زوال الألم الذي لم يزل.

في السيارة التي تنتظرني، أقبع الآن وحيدة. وأتذكر أني منذ سنوات أربع كنت أضم طفلي الأول. وكانت الشمس تطل عليَّ من النافذة. كانت فرحة طفولية ما تغمرني لوجوده بين ذراعيَّ، الخاويتين الآن. يؤلمني ألم الرحم المنقبض والجرح الغائر والفراغ. وصمت كل شيء في الطريق المفضي إلى البيت.

في السيارة شربت علبة عصير أخيرة. واتكأت إلى وسادة صغيرة وحاولت النوم. ذهبنا لاصطحاب ابننا إلى البيت. جاء مع جدته واستقر في المقعد الأمامي. قال في قناعة سنواته الأربع: أخت شهاب رجعت بطن ماما علشان تكبر. ثم أردف: سلامتك يا حبيبتي.

في الطريق قلت لنفسي: أخبرها كل الحقيقة حين يحين الوقت. اشتريت علب عصير كثيرة، وبضعة أشياء أخرى. رحت أفكر متى ولدت ابنتنا ومتى ماتت، حقًّا؟ قالت زوجتي: ولدت «دنيا زاد» في ١٥ مايو ١٩٩٥ في الثالثة والنصف ظهرًا تقريبًا، وماتت مساء ١٦ مايو ١٩٩٥ . وقالت أيضًا: لم يكن جوفي يومًا مقبرتها. لكني كنت أعرف غير ذلك.

التفتُّ إليها ونحن في الطريق، وأربِّتُ على ساقيها. يلح عليَّ ذلك السؤال البغيض: متى ولدت حقًّا ابنتنا، تلك التي رأيتها منذ ساعات قليلة تتوارى في غرفة تحت الأرض دونما سبب حقيقي؟

* * *

احتميت بفراشي من وجه أمي العابس. استغرقتُ في النوم دون أن أبدل ملابسي. حين صحوت كانت آلام الجرح تلح عليَّ، وأسئلة كثيرة متخبطة تومض في رأسي، ثم سرعان ما تنطفئ.

بلغتني أصوات خارج الغرفة. خلعت ملابسي ببطء، وطلبت من أمي أن تعود إلى بيتها. مستاءةً فَعَلَتْ. هكذا لم يعد من أحد سوانا؛ زوجي وأنا وشهاب الدين ـ الذي كان رقيقًا كعادته ـ نتجنب النظر في أعين بعضنا البعض، ونكتم رغبة عارمة في الصراخ.

زوجي لا يفكر. مشغول بإعداد الطعام وموعد الدواء ومطالب الولد. احتفظ في قلبه بحموله التي سرعان ما تخف وطأتها مع الوقت. اتفقنا ألا نستقبل أحدًا بالمنزل. الأصدقاء يبكون، والمعارف

ينتهزون الفرصة للتباكي. هكذا أمضينا الأسبوع الأول وحدنا. جاءت أمي رغم كل شيء تحمل طعامًا وبعض الحكايات الجديدة. تحمد الله على سلامتي. أنا ابنتها التي خرجت بها من الدنيا (وماذا عن ابنتي؟)، وتدفعني إلى حافة الجنون. وجاء أخي الأصغر يحمل وردًا وكثيرًا من الحب، كما عهدته، لم يبقَ كثيرًا. وعاد بعد يومين أيضا كاسرًا حاجز العزلة. ثم جاءت صديقتي «نورا» التي رفضتُ لقاءها، ثم في المرة الثانية قابلتها بابتسامة مطمئنة.

تحدثنا كثيرًا. أغترب عنها وأسألها عن ابنتها ذات الأشهر الثمانية. وأتذكر يوم ولدت (ترى هل ولدت ابنتي حقًّا؟)، ويوم حملتها بين ذراعيَّ للمرة الأولى. ثم جاء أصدقاء آخرون كثيرون. حين مر الوقت وأصبح من الممكن أن أنظر في عيونهم دون أن يكون في ذلك دعوة للتذكر.

أعد الأيام بلا أرقام. أعدها بمدى ابتعادها عن يوم الاثنين الخامس عشر من مايو. حتى ذلك المساء الذي عثرت فيه على بعض القصاصات التي كان زوجي يدون عليها بيانات المستشفى. أرقام أكياس الدم، المصاريف المتفرقة، ساعة دخولي غرفة العمليات وساعة خروجي منها. نص تقرير الطبيب الذي استخرج بناءً عليه التصريح بالدفن... أقرأ: «وفاة في الرحم نتيجة انفصال تام للمشيمة».

بكيت كما لم أفعل من قبل. لم تعش خارج هذا الرحم المقبرة. كذبوا جميعهم. وصدقت لأني أردت لها الحياة يوما، أضاعفه

سنينَ في الذاكرة. خرجت من مقبرتي إلى مقبرتها ولم تترك لي سوى ذكرى وجه أزرق اللون. أراه فوق صفحة السماء في الصباح. وفي تموج أغطية الفراش إلى جواري حين يحل المساء. وجه نائم مختنق وجميل.

قال زوجي: كنت أنوي أن أخبركِ حين تشفين.

لم أكن قد شفيت منها بعد. وكان عقلي يعمل بانتظام. تعود الصور الواحدة تلو الأخرى. وتحتل مساحات متباينة من رأسي. أعيد إنتاج الأحداث وأسأله عمن كانوا يعرفون. كل هؤلاء الذين جاءوا لزيارتي ولم يسألوا عنها. كل هدايا الأطفال لم تصلني قط. والكل ينظر إلى وجهي الباسم في قلق. على المنضدة، زجاجات عطر وورد كثير، وفي الأركان نباتات ظل (لا تزين بحال قبر ابنتي).

عند خروج زوجتي من غرفة العمليات، تيقنت أني أفقدها. وعند خروج ابنتي من المستشفى في سلة الورد، تأكد لديَّ إحساس الفقد. صورتان لوجه زوجتي ولوجه ابنتي الساكن مزروعتان في قلبي كالصبار. دائم التحدي. قلت لنفسي: أكتب عنها قصيدة. لكني لم أفعل. وقلت: كيف أستبقي اللحظة وأستعيدها أنا الخائف المهزوم؟ وكنت قد دربت نفسي منذ سنين على الاختزان. قلت: اللحظة تفرض حزنها على الذاكرة، وتحفر لنفسها طرقًا ملتوية في الرأس، وسوف تعود إن أردت استحضارها (فهل أريد؟).

عندما جاءت أمينة (صديقتي) بكت زوجتي بين ذراعيها. ثم بكت بين ذراعي زوجها. كنت أشعر باحتياج طفولي لكل الأصدقاء والعائلة، وحتى بعض المعارف المتفرقين. احتياج حقيقي لأن يربت أحد ما على يدي، ويمسح عن جبيني صور الموت القريب والموت الممكن والموت المحدق.

كانت زوجتي تسألني متعجبة: لماذا لا تبكي؟

وكانت تقول: ربما لم أعرفك بعد.

* * *

أستعيد لحظات الألم الأولى كالمحارات. وأكتشف أني نسيت طعم وشكل ورائحة الألم، ولم تبقَ لديَّ سوى تلك الرغبة في إعادة تشكيل العالم، وفقًا لقانون الغياب.

عدت إلى زوجي وابني الوحيد وبيتي الوحيد وبعض أصدقائي. ولم أجد بعد نفسي التي تصورت أني أعرفها.

كثيرا ما كنت أشعر بأننا أربعة أفراد في الأسرة فلا أجد غير ثلاثتنا. منذ تسعة أشهر، كنت أعد العدة لاستقبال هذا الكائن الرابع الذي نما بداخلي، بتفاصيله اليومية.

اليوم أفتقده، وأستعيد حياتي بصورتها الأولى. عاد جسدي إلى سيرته الأولى. وعاد كل شيء إلى نقطة البدء.

لكني أجاهد لا زلت كي لا أنسى. وأسمي الأشياء من جديد كل حين.

كانت إذن «دنيا زاد» أو لن تكون بعد اليوم سوى تلك الأسطر القليلة. أتذكر الآن صورتها حين رأيت للمرة الأولى عظمة الفخذ على الشاشة عند الطبيب. تلك التي يقيسون عليها عمر الجنين. ثم رأيتها ثانية ونقط كثيرة تمتد لقياس طولها. كل شيء كان كما ينبغي له أن يكون. أتذكر أيضًا أشياء كثيرة لم أقلها.

الآن يتدلى ثديي بلا فائدة. وأخلع ثوبي مديرة ظهري للمرآة.

جريدة الصباح

ليس من السهل أن يفاجئك وجه باسم تعرفه. ذات صباح مشمس في صفحة الوفيات المجللة بالمربعات السوداء الكبيرة. تقرأ الاسم بجوار النافذة، ويروح بصرك يفتش في البنايات البعيدة عن ذكرى ما. عن صورة ما تشبه تلك الصورة الباسمة. تتحرك فيها عضلات الوجه وتقول: كان هذا الوجه حيًّا.

منذ أيام قلائل صادفتَه في أحد الممرات، وتبادلتما التحية على عجل وقلت: تلفون بيننا، وموعد لم يتم؛ لأنك قتلت الفرصة ساعتها ونسيت.

* * *

ليس من السهل أن يحدث هذا لي. بعدما فقدت «دنيا زاد» وعرفت أن الحزن خيط ينساب بين الحلق والقلب. يحفر في طريقه أخدودًا خشنًا تحترق داخله صور الألم، ويبقى جداره صلبًا. يمر

الزمن. وأعرف كلما تحسست رقبتي أن الأخدود لم يزل. وكلما سال خيط ألم جديد تمتلئ شقوقه ازداد توحشًا.

* * *

صباح يوم من أيام صيف حار ـ كانت «دنيا زاد» الآن قد رحلت، ورحت منذ رحيلها أتفقد صفحة الوفيات قبل الأخيرة في جرائد الصباح ـ حدث هذا لي. وفي الصورة الباسمة تحت أحرف الاسم الثلاثي. بين سطور النعي الطويل، طالعني وجهها مختلطًا بدماء المخاض وزرقة الموت الذي لم يتأخر. دقيقتان ـ وبعد دقيقتين تحسست صفحة الوجه وطويت الجريدة. قررت ألا أذرف دموعًا للمناسبة ـ هل مات هو أيضًا؟ هكذا؟

* * *

الصورة: رجل في الخمسين. وربما في الستين. نظارة طبية مستديرة وذقن حليق. رائحة عطر تفوح من مسام وجهه القطنية الملمس. ابتسامة خفيفة. الأسنان لا تظهر. لكنها منتظمة. تفسح مكانًا صغيرًا لطرف اللسان في طفولة. الوجنتان بارزتان كنحت صياد عجوز. والعينان صغيرتان خلف زجاج النظارة الذي يعكس ضوءًا على الوجنة اليسرى، وميلًا طفيفًا في الأكتاف.

يمتد الصدر تحت الصورة، ثم الخصر، ثم الساقان.. وتكتمل الهيئة عند نهاية الصفحة. النعي أيضًا يحتل عمودًا كاملًا، والصورة لا تتحرك. لكنها كرسوم الفراعين تتأهب للحركة. وتثبت في الذاكرة.

أعرف عنه قصصًا وحكايات كحكاوي الجن والعفاريت. في الأمسيات الصاخبة تخيفني قصصه. وحين أختلي بنفسي أذكر بعض التفاصيل.. فأبتسم.

منذ أيام قلائل قابلني في أحد الممرات، وقص عليَّ قصة مقتضبة، ثم تبادلنا التحية على عجل. وقلنا: بيننا موعد في الأيام القادمة.

القصة: تصوري عادت زوجتي اليوم من عملها في الثالثة ظهرًا وكانت تتألم. ساقها اليسرى لا زالت تعاني آثار كسر قديم. أرحتها على الفراش الخشبي. وضعت تحت ساقها وسادة. وحين وقفت وحيدًا في المطبخ. لاحظت شقوقًا في الجدار. وشربت زجاجة مياه غازية دفعة واحدة. لكني لم أسكر!

الزوجة الآن تبكي... تتطلع إلى الصورة الباسمة في جريدة الصباح. آلام الساق اليسرى تزداد عنفًا. والجدار يستند إلى جدار آخر. وزجاجات المياه الغازية التي لا تسكر متراصة في صندوق المياه الغازية الذي لا يخلو أبدًا.

* * *

قبيل الظهر..

هواء حار يتسلل من فتحة صغيرة في النافذة. وصوت أوراق الجريدة يبعث على النوم. يتخللها الهواء فتنتفخ قليلًا، ثم ترفرف

أوراقها كأجنحة عصافير صغيرة يهدأ بعضها فوق البعض لحظة، ثم تعود فتنتفخ بالهواء الحار. وتكشف عن طرف من الصورة الباسمة: الذقن، ونصف الفم. ألمحهما بين الحين والحين وأتحسس موضع القبلة التي ودعني بها على عجل ذلك اليوم. أغمض عينيَّ، وأستسلم لتيار معاكس يأتي من ناحية الباب. خلف جفوني المسدلة أرى الشمس تغرب. وتترك ظلها في غرفتي.

أسمع وقع أقدام حافية. أقدام عارية فوق بلاط مصقول. في التصاقها بالسطح الناعم تصدر صوتًا يحتويني. حين أفتح عينيَّ أجدني صغيرة أمامي. لم أتعدَّ الثالثة من العمر. صغيرة ونحيلة ومبتسمة كالشمس. أحتضنني وأقبلني وأسميني «دنيا زاد» التي كانت تشبهني.

أغمض عينيَّ ثانية فترحل صورتي الطفلة، وتحل محلها صورته الباسمة.

هذه المرة: وقع أقدام عسكرية. وأبواب سجون تصطك. وسياط معلقة فوق الرءوس. سريعًا أمحو الصورة الباسمة من ذاكرة العين. وأجول بنظرة فزعة في أركان الغرفة الأربعة. الجريدة لم تزل على المنضدة، والهواء لم يزل حارًّا، وتيار أكثر عذوبة ينساب عبر الباب المفتوح. على مقعدي أستريح، وأمد ساقي فوق المنضدة وأغفو بلا إبطاء.

الحلم: اليوم أتمت «دنيا زاد» ثلاثة أسابيع. أنير لها شمعة وأحملها إلى قبرها الساكن في ركن من أركان الغرفة. أفتح باب القبر، وأتسلل إلى حيث الجسد الساجي. أضع الشمعة إلى جواره.

وأبكي مرة واحدة. في طقوس حب سرية، أراها تطبع على جبيني قبلة حارة كحرارة القبر المغلق.

الشمعة تذوي وتذوب. تستوي دائرة شمعية جديدة بجوار الأخريات.

حين أغلق الباب عليها أخيرًا، أجدني أفتش في أنحاء الغرفة عن مكان جديد يصلح قبرًا لصاحب الصورة. أشرع في بناء مصطبة كمصاطب الفراعين. وأحاول أن أتذكر أبعاد الجسد الذي لن يلبث أن يدفن في جوفها.

الزوجة الآن تكف عن البكاء.. تتحسس فجوة غائرة في الفراش. كان يحتلها ذلك المساء.. قال إنه سوف يغفو قليلًا؛ لأنه على موعد. وتحرك مرتين قبل أن يستقر على الجانب الأيسر. جاء الليل ونسيت الزوجة وهي تحاول أن توقظه عن أي موعد كان يتحدث.

* * *

يحدث لي أن أفقد صديقًا ولا أبكي.

الموت موعد بيننا لم يتم. وقبر جديد في غرفتي.

ثوب جديد للمناسبة

مساء يوم اثنين أيضًا.. دورة الأيام المعتادة.

قالت نورا وهي تتثاءب: يجب أن تعودي إلى عملكِ.

نورا صديقتي الصغيرة التي أحبها. والتي لم تدفن بعد في قبو سري داخل القلب. قالت وقد كفت عن التثاؤب واكتسب صوتها نبرة أعرفها: ماذا أفعل بدونكِ؟ وكانت نورا صديقتي التي أصطحبها إلى العمل أحيانًا. والتي أثرثر معها عن الآخرين كل حين، هكذا... قطعت مكالمتي الهاتفية مع نورا، ووجدتني أطرق بابها. أحمل مظروفًا ضمنته طلب استقالتي. كتبت كلمتين مقتضبتين. وقلت حين طالعني وجه نورا وراء الباب: ستكونين بخير.

كنت نائمة ورأيت في أحلامي المتشابكة وجه صديقتي يتقلص وينزوي في ركن قصي من الغرفة (تلك التي طليت جدرانها باللون الأسود، وأغلقت نوافذها على وحدتي). لا بد أني تكلمت بصوت عالٍ في أثناء النوم. صحوت على صوتها في

الهاتف يقول: أمر عليكِ بعد عشر دقائق. أنتِ الوحيدة التي تستطيع تقديم الاستقالة نيابة عني. حاولت تركيز الكلمات. عاندتني، ثم قالت: بدون مناقشات. أمر عليكِ الآن.

وقالت: نورا! هذا أمر مُنتهٍ.

اسمي نورا... أدركت ذلك بعد حين وتأهبت لاستقبالها.

ذلك الصباح. يوم اثنين مشرق.. حادثني الرئيس هاتفيًا. كان ثائرًا. قال: صديقتكِ تهمل في عملها. سوف أتخذ ضدها الإجراءات اللازمة! وكانت الغرفة تكتظ بصغار الموظفين فعرفت أنها تمثيلية.

جلست على مقعد صغير اعتدت الجلوس عليه في أثناء الزيارة. وضعت المظروف على حافة المائدة الخشبية، ورفعت عيني إليها مبتسمة. جاءتني بكوب ماء مثلج وجلست بجواري. قصت عليَّ ثانية موضوع الحديث الذي دار بينها وبين رئيسنا وقالت تحاول التفسير إنه أخطأ تقدير الوقت.

دفعتني الذاكرة سريعًا إلى الغرفة ٤٠١. رأيتني أغادر الفراش بطيئًا أنظر إلى باب الحمام كأنما إلى حلم بعيد. وأهوي فوق بلاط الغرفة النظيفة.

هببت من مقعدي فجأة حين لسعني ملمس البلاط. ترنحت قليلًا، وطلبت من نورا كوب ماء آخر. قالت نورا: الآن تكونين بخير. ولم أقل سوى كلمتين: هيَّا بنا.

شارعنا نظيف. في المساء تصطف السيارات على جانبي الطريق والهواء يخترق الشارع بطوله. لم نقل شيئًا.. سرنا متجاورتين.. أردت أن أقبلها بين عينيها لكني لم أفعل. لم تكن حزينة، كانت غاضبة. وكنت أريدها أن تنفث غضبها في أي شيء. في وجوه الناس المستسلمة، أو في الطريق الملتوي العاري من الأشجار، أو في وجهي. فكرت: لن أراها بعد اليوم كما تعودنا.. قلت: نذهب إلى السينما يوم الخميس القادم؟ قالت: أتصل بكِ إن تغير شيء. اتفقنا إذن على موعد. وابتعدت كل منا في طريق. كان زوجها ينتظرها. وكان بيتها الصغير يختنق بالكتب والأحاديث الليلية التي لا أعرف عنها شيئًا.

عدت وحيدة إلى البيت، وتركت الباب يصطك بقوة. تذكرت قصة كتبتها صاحبتي منذ شهور وكان عنوانها «استقالة».

حين اخترقت كثافة الهواء المفضي إلى باب البيت، تذكرت قصة كتبتها منذ شهور عنوانها «استقالة». ما إن زال عني توتر اللحظات الأولى، حتى أخبرت زوجي بما كان، فاحتضنني. وراح يفكر بعد ذلك. وحيدًا في غرفته.

مثل زواحف العصور الخالية ذات الأذيال والرأس الصغير. رأيت، كمن يرى النائم في حلم غريب، وجوه بعض زملائي في العمل. وتحسست مؤخرتي خوفًا من أن ينمو ذيل ما قبل التاريخ ثانية.

هكذا استرحت إلى قراري بالرفض وقلت: غدا أذهب بنفسي، ولا أخاف المواجهة.

* * *

«على مائدة الاجتماعات المستطيلة أوراق هامة ملونة. جدران الغرفة الخشبية حال لونها. والمكتب الكبير الذي يتصدر الحائط الأمامي يلمع في ضوء الشمس القادم من نافذة مغلقة. الهواء القادم من العلبة المعدنية يشبه هواء العلب المحفوظة بلا صوت، بلا رائحة. أسبح في الفراغ الفاصل بين الباب وبين المكتب مرورًا بالمائدة المستطيلة. أخترق عقبات أخرى صغيرة، وأتخطى إحساسي بالسأم. أضع على المكتب ورقة وحيدة ذابلة، ولا أنظر إلى الرجل القصير الذي يحتمي بمقعده العالي. نتبادل كلمات قليلة قبل أن يضع إمضاءه أسفل إمضائي... ألتفت إلى الهواء المحلق فوق رأسي فلا أجد أثرًا لصورتي العارية».

أعيد قراءة هذا المقطع في الليل. وأكتب هذه المرة استقالة حقيقية، بلا أسباب تدعو لفتح أبواب التحقيق: «أرجو من سيادتكم الموافقة على استقالتي»، ثم: «وتفضلوا بقبول...» هكذا لا تحتمل الأشياء أكثر مما يدل عليه الفعل. ليس ثمة صياغة أخرى مناسبة. كثير من الاحترام كثير من الاختصار والتنميق في الخط. على المظروف الجديد، أكتب اسم الرئيس، وأضع تحته خطًّا قصيرًا ينهي كل شيء.

رسمت في رأسي صورًا للقاء الغد.. وقررت في النهاية ألا أقول شيئًا البتة. هكذا شرعت في بناء مقبرة جديدة أضع فيها تمثالًا للرجل وأواريه التراب.

تذكرت: حين رحلت «دنيا زاد» أرسل لي خطابًا وقال: «تولدين من جديد وسط شلالات الألم». وكنت في ذلك الحين أبكي «دنيا زاد» كثيرًا كل يوم (ما الذي تبدل الآن؟).

* * *

صباح الثلاثاء قضيت نصف الوقت في النوم. والنصف الآخر في المكتب. كلما تقدم الوقت اختزنت في رأسي صورًا للمكان.. وللناس، يروحون ويجيئون. وكلما التقت أعينهم دار الحديث عني. همسًا.

مدير المكتب رجل طيب. تسلم استقالتي متخوفًا. قلت: سوف أقابله لأقدمها بنفسي. وقع بالاستلام والتف الموظفون حول الأبواب وخلفها.

نصف ساعة من الانتظار الطويل. تشاغلت بقراءة بعض الأوراق التي حملتها خصيصًا لأقطع بقراءتها الوقت. تذكرت وجه نورا مساء أمس تحاول إثنائي عن الرحيل.

لم يرن الهاتف كما توقعت صباح الثلاثاء. كنت أنتظر أمرًا بالتراجع، لم يأتِ.

أعددت طعام الإفطار لابنتي، ووضعته على مائدة المطبخ وانتظرت.

لم يطل انتظاري. جاء. قلت وأنا أضع أمامه الورقة الوحيدة الممكنة: مدير المكتب عنده نسخة منها. لم يقل شيئًا. استدرت مضيت صوب الباب. هب نسيم خفيف من الباب المقابل، وسمعت صوت أوراق تتطاير. أغلقت باب المكتب، وأنا أقول لنفسي: لن أسمع هذا الصوت بعد اليوم، ولن أعود لأطأ هذه العتبات، ربما لسنوات كثيرة قادمة. ابتسمت للسكرتيرة التي سألتني: هكذا.. سريعًا؟ وارتسمت فوق رأسها علامة استفهام كبيرة.

* * *

عبرت الطريق إلى أحد المحال، وأعجبني ثوب ألوانه زاهية. ترددت لحظة أمامه لكني سرعان ما أبعدت الفكرة عن ذهني، ومضيت. شهور عجاف تتلو هذا «الفعل الأول» منذ موت «دنيا زاد»، لكن المناسبة كانت تستحق الاحتفال.

كان بيتًا في الحقول

مشاحنات في الحجرة المجاورة. أبخرة ورائحة سجائر وأصوات وحركة مكتومة، وأبواب تصطك ونوافذ تفتح، ومقاعد تتحرك على الأرض الخشبية المصقولة. «نبيع البيت» قال الخال، وقالت ابنة الخال، وقالت الأم. وقال المحامي الشاطر الذي ينتظر ستين ألفًا من الجنيهات المصرية.

قال زوجي إنه يحب الشارع الذي باعه أهله. ويحب البيت. لكنه قال أيضًا: نبيع كما يبيع الآخرون. وقلت في صمت حجرتي المجاورة: منذ خمس سنين جئت هنا بثوب أبيض يتدلى الآن صامتًا في الصوان. مغلفًا بكيس من البلاستيك تعلوه بعض أتربة.. حملني زوجي بين ذراعيه لنعبر حفرة كبيرة استقرت أمام باب البيت. كان الجيران يهدمون بيتهم، ويحفرون طرقًا جديدة للماء وللصرف تسع اثني عشر طابقًا جديدًا. حملني زوجي حتى نجتاز الباب الحديدي، فوق سقالات خشبية صنعت خصيصًا من أجلنا. واحتفلنا بليلة

زفاف سعيدة على أصوات البلدوزر. في تلك اللحظة، فكرت أن أستدعي الشرطة. الحفارات تدق في أذني، وصوت الخال الغليظ أيضًا. والشرطة ليست في خدمة أحد.

وسط كل هذا الضجيج المفاجئ. أنصت إلى صوتها في الحجرة المجاورة. تتنفس بهدوء فوق مقعدها المطل على الحديقة الخلفية، وتنتظر بفارغ صبر انصراف الجميع. أحملق لوهلة في وجه المحامي ذي الشارب الكث، وأتعرف في بروز وجنتيه على ملامح جدي العجوز. منذ ثلاثين عامًا أقام البيت بأموال جدتي وثمن الأرض الزراعية البعيدة. وأَسْكَنَ أبناءه جميعًا. زوَّجهم. ورأى أولادهم يخطون فوق حشائش الحديقة الخلفية. كان يطل عليَّ من نافذة الدور الأول، وكنت أرتدي سروالًا قصيرًا وأبتسم له فوق دراجتي ذات العجلات الثلاث عندما التقط خالي الصورة. احتفظت بها في صندوقي حتى تزوجنا وأنجبنا ولدًا. لا يخطو فوق حشائش الحديقة الخلفية؛ لأننا نؤجرها لأصحاب الشركات. واليوم نبيع البيت ونحتفظ بصورته في صناديقنا. وبمليونين من الجنيهات المصرية في بنوكنا. راح المحامي يحملق في وجهي حتى ذابت أعيننا في الصمت الذي حلَّ.. فجأة.

قال زوجي بصوت واضح: «مليونان»، وقال المشتري: الأرض لا تساوي أكثر والتصاريح كما تعلمون.. والهدم. وتكاليف أخرى لا طاقة لي بها. وقال الخال بصوت غليظ متحشرج محاولًا أن يتم البيعة بإقصاء زوجي منها: موافقون. خرجت الأم مغتاظة من الغرفة

المجاورة، ودخلت غرفتي تبحث عن شيء لا تعرف ما هو. لم أقل شيئًا، وأخذت أربت على ظهر الصغير الواقف إلى جواري عند النافذة. كانت «دنيا زاد» ستصرخ الآن فزعًا، وكنت سأحضنها وأدير وجهها صوب السماء، وكانت ستزن أكثر من ثمانية كيلو جرامات في شهرها الثالث، وكنت سأضعها في فراشها الصغير حتى تنام. فهل ينصرف الجميع الآن؟

لا بد أنها تنتظر الآن إجابتي. أوافق على إتمام البيعة فتقول: خضع لرأي خاله. أعترض على الثمن فتقول: دعونا ننتهي من هذا الأمر. أظل صامتًا فتقول: دائم التردد. من الغرفة المجاورة تأتيني ردود أفعالها لأفعالي المتخيلة؛ فأعجز عن التفكير. وأهب واقفًا لأتجه في صمت صوب نافذة مجاورة. أدَّعي تقليب الأمور برأسي الفارغ إلا من صورة جدي القديمة، ورسم زوجتي هناك. أفكر في أي شيء غير الثمن المعروض لشراء البيت.. مليونين. رقم بلا معنى. مثير وبلا معنى. ماذا يشتري الإنسان بمثل هذه النقود؟

بيت جديد أحلم به. قباب ومنحنيات، وأبواب خشبية عتيقة، وحديقة صغيرة، ومغطس من القيشاني الأبيض. بيت تحبو فيه «دنيا زاد» شرقًا وغربًا دون خوف. يتلاشى في الذاكرة كما تتلاشى صورتها في قبر محكم الغلق. الآن أستبدل بهذا البيت شقة صغيرة في مكان ما من هذا العالم، تضمنا ثلاثتنا: أنا وزوجي وشهاب الدين.

ثلاثة بيوت جديدة نشتريها. في العاصمة: بيت لأمي وبيت لنا، وفي المصيف هناك نبيت لراحتنا كل شتاء وكل صيف. نستبدل بالبيت الكبير ثلاثة بيوت صغيرة. ونمحو اسم الجد

المنقوش على باب البيت الخارجي. أرى المعاول الآن تقترب من أنفي فأجفل. ألتفت إلى المحامي ذي الشارب وأعرض عليه حلًّا وسطًا. يرحب به الجميع، وينتهي الأمر.

صناديق مختلفة الأحجام سوف تتكدس في مدخل البيت العتيق. تحت شجرة ماتت وذبلت أغصانها منذ زمن قريب. شجرة مانجو وحيدة في فناء صغير يطل على شارع ضيق. سيارة النقل سوف تأتي لتحمل بداخلها صناديقنا الثقيلة. وتتشكل أكوامًا مختلفة، متباينة اللون والهوية. صناديق ذكريات زوجي الثلاثين. وصناديقي التي لا تتعدى خمس سنوات مضت. صغيرة ودافئة وكأنها تضم صغار قطة مريضة، ما تلبث أن تموت وتخلفهم أيتاما. صغارًا ودافئين وودودين، كأعوام شهاب الدين الأربعة، وكأشهر «دنيا زاد» التي لم تكتمل بعد ثلاثة.

قلت لزوجتي: نبيع البيت، وارتسمت في رأسي صورة «دنيا زاد» التي لم تشهد يومًا كهذا. ثم صورة جدتي وخالي الأصغر الذي مات شهيدًا. وجدي الذي علمني القراءة في مقعد خشبي تحت تكعيبة العنب، التي صارت جراجًا من الأسمنت بعد حين.

كل هذه الصناديق سوف تتكدس في سيارة النقل، وتذهب إلى حيث أعلم. لا وقت للحلم. كل هذه الصناديق إلى حيث أعلم.

جدران البيت التي حال لونها. الموقد القديم في المطبخ. القيشاني الأبيض يغطي الحائط حتى نصفه، ويمتد اللون الأصفر

حتى السقف. الحمام الصغير بفسيفسائه الزرقاء. والحمام الكبير برائحته ونافذته البيضاء. المطلة على حقول قديمة صارت عيدانها من الطوب الأسمنتي، وأوراقها من رقائق الميتال البني الداكن. حقول قديمة خضراء تحت العمارات والمحال والأسواق والطرق المرصوفة. جئتُ هنا منذ خمس سنوات، ورأيت بعينيْ زوجي ترعًا جافة وسواقيَ. رأيت بعينيه شوارع فسيحة ودراجات ملونة يركبها الأصدقاء. وميدان «الدقي» يبدو عند الأفق. يعلوه تمثال سعد زغلول، يعلوهما النيل، مثل لوحات العصور الوسطى.

نبيع البيت. وغدًا يضربون أول معول في أرض الدور العلوي الخشبية. مقاول الهدم لا بد آتٍ كما حدث في بيوت الشارع جميعًا. والحفار الميكانيكي الذي استقبلني وزوجتي ليلة العرس يدق في رأس عروسين جديدين في غرفة مكيفة. في شقة هناك في الطابق الثاني عشر. لكنهما لن يسمعا صوت الحفار ولا صوت التكييف، ولن يطلبا الشرطة بعد منتصف الليل. لم يعد ثمة قانون يحكم بين الناس بالصمت ليلًا.

الأرض تساوي أكثر من مليونين من الجنيهات المصرية. والشقة التي سوف ننتقل إليها معدة لاستقبالنا. تقبع عند أعتابها صناديقنا القديمة. لن نلبث بعد حين أن نفسح مكانًا لصناديق جديدة، تفترش كل ركن من أركان البيت الجديد، وتمد جذورها في سقف جارنا. وتحفظ لنا أحاديثنا الليلية عن بيوت قديمة حال لونها.

لعبة الموت

ملاءة بيضاء كبيرة مربعة يمسكون بأطرافها. أربعة رجال وربما أكثر ويقذفون بك إلى أعلى، ثم يلتقطونك صائحين. وأنت زائغ البصر، لاهث الأنفاس، يكاد قلبك ينخلع كلما قاربت قمة بدت لك بعيدة وأنت على قدميك. تفكر سريعًا: متى تنتهي لعبة الموت؟ وكيف ستكون حركتك على الأرض بعد ذلك؟ (هل قرأت يومًا قصص «لاكي لوك» المصورة؟).

* * *

برميل يمتلئ زيتًا أو قارًا. وعدد من فتيان الكاوبوي الأقوياء الهازئين يلتفون حولك أيها الغريب، القادم حديثًا إلى مدينتهم المنفية في صحراء. ويقذفون بك فوق الملاءة البيضاء بجوار البرميل الكبير. ثم يغطسونك فيه قليلًا قبلما يدفعون بك إلى كومة هائلة من ريش الدجاج الأبيض الذي يلتصق بك وأنت لا زلت

تعاني الغثيان والدهشة؛ فتصير مثل ديك كبير موفور الريش وبائس (ها أنت الآن تتذكر قصص الطفولة المصورة!).

تغتسل في الفندق القريب. وتزول عنك رائحة الزيت الأسود والدهشة. تقف على قدميك راسخًا. وتحكم إغلاق الأزرار التي تزين سترتك البنية. تكتم الرغبة في التقيؤ. وتخرج إلى الصحراء منتفخًا بنصرك. يراك بعضهم فينحنون لك. والبعض الآخر يسخر من برودك الإنجليزي. لكنك الآن تعرف لعبة الموت، وتحفظ طقوس اختباراتهم عن ظهر قلب. صرت رجلًا بحق. تستطيع الآن أن تدخن سيجارة ملفوفة بيضاء. وتتركها تتدلى من جانب فمك الأيسر عن عمد. نعم. ضع يدك في جيب الصديري الضيق، وانظر إلى الأفق البعيد، وفكر، أنت الآن «لاكي لوك» نفسه. لا ينقصك سوى حصان هزيل وطيب. يشاركك الصمت والتأمل والمغامرة والوحدة. أنت الآن قاهر هؤلاء الأوغاد المخبولين وسيدهم. لن يستطيع أحد أن يربطك من أطرافك الأربعة إلى أوتاد أربعة في شمس الصحراء. ويصب عليك العسل حتى يأكلك النمل. ولن يستطيع أحد أن يقودك إلى ممر ضيق بين جبلين ليصب على رأسك ورأس حصانك قدرًا من الزيت المغلي. ولن يجرؤ أي منهم على إيذائك في أثناء احتسائك الخمر في البار الوحيد المكتظ بالبُلْه. تستطيع فوق ذلك أن تمسك بفتاتك المرتدية ثوبها الأحمر المطرز بالأسود اللامع من خصرها وتقبلها في فمها أمام الجميع، فيحسدونك ولا يقتربون منها في أثناء سفرك أبدًا. كما تستطيع أن

تغادر الفندق دون أن تدفع الحساب ودون أن تصطحب أنيسًا، فلا بد أنك عائد. عائد إلى صفحتك القديمة. في كتابك القديم المصور «لعبة الموت».

* * *

وربما لا يسمونها هكذا بالفرنسية. فقد قرأت قصص لاكي لوك وأنا في الثانية عشرة من عمري. ولا زلت أذكر تفاصيل اللعبة التي داهمتني ذات مساء قريب، وكنت أعد الأيام التي مرت بعد الشهر الثالث من موت «دنيا زاد». مرت إذن تسعة أيام، واليوم هو الخميس. لم يعد الاثنين يحمل حزنه الخاص. ولم يعد الخامس عشر من الشهر يخلف غصة في الحلق. لكني، لا زلت أبكي.

وربما أكون قد خضت حقًّا لعبة موت مشابهة. وطقوس اختبارات أخرى تقتل الخوف والدهشة الفزعة. لم يبقَ سوى اكتساب مناعات الفقد والقدرية المستسلمة والترقب. مثل احتساء الشاي كل يوم دون ملعقة سكر واحدة، ودون إحساس بالمرارة. هكذا لم يبقَ سوى أن أصنع ليلة حب مماثلة لتلك التي عرفتها منذ ما يقرب من عام. أن أصنع حلمًا آخر بالانتظار.. هل تكون هذه المرة أيضًا «بنتا»؟ وماذا أسميها؟

* * *

ليس من السهل أن تخرج من مأزق التفكير اليومي في الموت دون أن تفقد بضع ذرات من وجودك الملموس. قد تتساقط

خصلات شعرك في هدوء الأيام التالية. وقد تظل في الليل مفتوح العينين على الأرق. وقد تقضم أظافرك عن آخرها وأنت تقرأ جريدة الصباح. وربما أيضًا تفقد شهيتك للطعام وتفقد معها بضع كيلو جرامات زائدة. وتضع نظارة طبية للمرة الأولى في حياتك. وتبتلع قرصين من الدواء الذي أكد عليه الطبيب بعد كل غداء. وتشعر بالهزال في ساقيك فترفعهما فوق وسادة كبيرة طوال الليل. وتندفع الدماء إلى رأسك بطيئة حين تهب من كابوسك المعتاد فتترنح في طريقك للحمام. وتتقيأ الطعام والدواء والرغبة في البقاء حيًّا هكذا. لكنك تعرف الآن جيدًا لعبة الموت. فلا تراوغ ولا تندفع ثانية فوق الملاءة البيضاء التي ترفعك إلى قمم الأشجار وتلتقطك ثانية زائغ البصر. فقط انظر في مرآة الحمام إلى شحوبك الجميل. وتذكر أنك لا زلت تحيا.

* * *

انتظرت خمسة أيام بعد انتهاء النزيف. وأضأت شمعة في غرفة نومنا المربعة. ارتديت بيجامة بيضاء شفافة. وتركت فتحة كبيرة يطل منها عنقي وصدري. استلقيت إلى جوار زوجي، ورحت أتطلع إلى خيالات الظل المرتسمة على الفراش وفوق الصوان. كل شيء خاضع الآن للضوء المتراقص المنبعث من الشمعة الحمراء. وكل شيء يتقافز بطيئًا في حركة متكررة فوق الجدران (تتهاوى سريعًا يا صديقي فوق ملاءتك البيضاء. لكنك لن تلبث

أن تلحق بالهواء الفاصل بين رءوسهم وبين قمم الأشجار القريبة. ترتفع وتهوي، ثم ترتفع ثانية وتظن أنك لن تبلغ الأرض أبدًا. ثم ترتفع وترتفع وترتفع على صياحهم المحموم، وتهبط مرة واحدة وأخيرة لتلمس بأطرافك المتقلصة أطراف الملاءة الساكنة. وبين ضحكاتهم ولغوهم، تنصت لدقات قلبك المتسارعة. وتكشف عن عينيك الغشاوة.. لا زلت تحيا.. وتنتظر اختبارهم التالي).

دفعني زوجي بحركة رقيقة من يديه. كنت أتمدد عارية فوق جسده. وكانت حبات العرق تغطي صدرينا المتلاصقين. أستلقي فوق ظهري إلى جواره، وأمد يدي إلى بطني الذي تكور بين جنبي خائفًا مرتعشًا. أي لعبة نلعبها الآن ثانية؟

تتحدى خوفك. هذا كل ما في الأمر. وتنصت إلى صوت الدماء المتدفقة في عروقك. حارة. وتحكم إغلاق أزرار سترتك ثانية. حتى لا يصيبك الهواء القادم من النافذة الصيفية. تفكر في حصانك الهزيل وفي فتاتك المفتونة بك وفي صحرائك الممتدة إلى الأبد. وتمضي في الطريق الذي خططته بيدك فوق صفحة السماء. لا تلوي على شيء. الموت حلّ. الموت حلّ ورحل، والانتظار لا طائل منه.

سؤال يلح آخر الليل هكذا..

آخر الليل. والطريق الواصل بين الجيزة والجنوب لا يهدأ. بقعة ضوء تطل من نافذتي على المريوطية. عندما... حملقت في السقف برهة من الزمن. وعرفت أني لن أكتب الآن عن الموت. وأني لن

أذكر «دنيا زاد» بغير اسمها وحده. وأني الآن أعد الوقت الفاصل بين اللحظتين فأعرف أن شهورًا مضت. أكثر من أربعة على أي حال.

سألني صديقي اليوم: هل التأم الجرح؟ ولم أعرف عن أيهما يتحدث. قلت: نعم! وأكد الطبيب أيضًا أني أستطيع إنتاج أطفال آخرين. لا يموتون، ربما! ألم يلتئم الجرح؟

* * *

قطعت حبال الظنون، وقضيت ليلة حب بين ذراعيه.

يدفن نصف رأسه في الحائط المواجه. ونصف ظهره في ظهري. ليلة حب لم تثمر بعد. ننتظر. فلا ينقطع الشك باليقين.

* * *

ثم إني رجوته ألا يسألني عن جرحي ثانية.. هذا الصديق.

لحظة انسلاخ بطيء من الماضي. أدعم قلبي بألواح خشبية حتى لا يسقط. وأمد بين فتحة الحلق وفتحة الرحم خيوط المحبة. لماذا تلازمني هذه الغصة حين أفكر أني كنت «مقبرة لها»؟

أغلق الرحم على دماء الحيض القادم الذي أتمنى أن يأتي رغم كل شيء.

* * *

أكتب عن الانتظار. عن رهبة وجود كائن آخر ينمو هناك. وسط شعيرات دموية أليفة. تحتضن بقايا حيوانات منوية أليفة تشبهنا.

أو أكتب عن ذاكرة خائبة. تحتفظ بوجه أزرق فوق صفحة سماء زرقاء. تقوم مقام «الجنة» الآن. أين هو إذن «صاحب العرش»؟ وكم من الكيلو مترات تفصله عن وجه «دنيا زاد» المستدير؟

أو أكتب عن قهر الخوف بخوف آخر. كأن تخاف على ملابسك من الاتساخ وسط حشد من المتأنقين عديمي الفائدة. أو أن تخاف على صورتك في التلفزيون حين تسألك المذيعة: ماذا كنت تقصد بعنوان «نحت متكرر»؟ ثم تطالع صحف كل يوم خوفًا من أن ينسوا ذكر اسمك في الصفحة الأدبية. وتتصل بإحدى صديقات العائلة لتطمئن على صحة أولادها، وعلى أنها شاهدتك على الشاشة ذلك المساء.

أو أكتب عن حلول بديلة. عن حب بديل. عن مغامرة بديلة لمغامرة الخلق. كأن ترتمي في أحضان قصة هزلية وتقنع نفسك بالضحك وسط شحوب الأبطال المغمورين.. أو أن تهزأ بقلب رجل عجوز فتوهمه أنه لا زال قادرًا على الإمساك بالعصا لعبور شارع عرضه عشرون مترا.. كأن تلعب لعبة المرأة الناضجة التي تخطت الثلاثين بثبات، وتستطيع الآن أن تفتح أزرار قميصها دون خجل.

أكتبُ أي شيء غير الموت الآن. وقد نسيت عدد الأيام. ومرت سحابة بيضاء فوق صفحة الوجه الأزرق هناك. في سمائه الزرقاء تلك. جذبت زوجي إلى الفراش في حركة عهر حقيقية؛ لأنتج طفلًا جديدًا لا يموت.. هأنا.. أكتب: يموت..

* * *

ثم إن الطريق الواصل بين الجيزة والجنوب يمر تحت نافذتي المطلة على المريوطية. وطريق آخر صاعد إلى قرى الجيزة الصغيرة المجاورة. حيث يصنعون جلابيب شعبية وسجاجيد من الصوف والحرير. فضلًا عن الطريق السري الآخر بين فتحة الحلق وفتحة الرحم. ذلك الذي صنعته ليشق بطني، ويخترق عقبات الجسد، ويمد خيوطًا بين إحساسي بالموت وبين كوني امرأة تلد.

سؤال واحد يلح آخر الليل دائما... هكذا...



نافذة على الانتظار

في شرفة الطابق الرابع. في وحشة الطريق المطل على الشرفة. وفي صمت نوافذ كثيرة مغلقة، وشرفات بعيدة تعكس ضياء شمس العاشرة صباحًا.

أقف منتصبة أحدق في ذرات تراب عفية تتكالب على سياج الشرفة. فتحيل لونه من الأحمر القاني إلى الأحمر الباهت. الأولاد في المدارس. وسيارات الرجال، المستكينة إلى الأرصفة، تقول إنهم بلا عمل يومي. وإنهم في غيبة الأولاد، يضاجعون الزوجات في الصباح، ويقرءون الجرائد في دورات المياه، ويشعلون سيجارة واحدة بعد الإفطار. خلف تلك النوافذ، وراء تلك الأبواب الموصدة، حركة متمهلة يومية بين حجرات النوم والممرات والحمامات والمطابخ. غرف الصالون مظلمة. والذهبي اللامع ينطفئ نوره بفعل الستائر المسدلة.

أرفع بصري قليلًا عن سياج الشرفة، وأتأمل ملابس الجيران المبتلة المعلقة على أحبال البلاستيك الملونة. بطانية حال لونها

تخرج من الصوان إلى الغسالة الفول أوتوماتيك إلى الهواء الطلق. ثقيلة لا زالت بالماء. تشي باقتراب الشتاء وقرب انتهاء الخريف. ثم قطع ملابس داخلية لطفل لم يتعدَّ السنة الأولى من عمره. بيضاء وملونة ومزهرة. تتمايل في تؤدة مع هواء الصبح الساري. رائحة الغسيل لا تفصح عن مسحوق خاص، لكنها تحمل ذرات بخارها في الفضاء، وتستقر بضع قطرات غير مرئية فوق السياج الأحمر لشرفتي. تختلط بالأتربة، ويتزاوج الماء الطائر بحبات التراب الساخرة. لا ألمس السياج أبدًا. وأنادي بصوت عالٍ فجأة على «أم هاني» التي تأتي متمهلة تحدق في وجهي بعيني صقر جبلي. أطلب منها أن تنظف سور البلكونة جيدًا. وأختفي في ظلمة الغرفة حاملة في أنفي رائحة عطنة، وفي أذني صوت قطعة القماش الطويلة تهوي فوق السياج لتفض شمل التراب والماء.

* * *

هكذا تتراكم الصور اليومية في مؤخرة رأسي. وهكذا أيضًا يصبح للشرفة دور صباح كل يوم اثنين. «أم هاني» تأتي لتنظيف المنزل؛ فأخرج إلى الشرفة التي لا أطرقها إلا نادرًا لنشر الغسيل أو لجمعه. وفي لمحة واحدة أرى الطريق، والأشجار التي تحفه، والترعة المقابلة، والبنايات المحيطة، والستائر المسدلة، وغسيل الجيران المتناثر في الشرفات البعيدة والقريبة. في لمحة واحدة تكون الساعة قد اقتربت من الواحدة بعد الظهر. المؤذن انتهى من الدعوة لصلاة الظهر، أو هو يبدأ في سن حنجرته المتحشرجة ليعلن إقامة الصلاة. والزوجات الطيبات يبدأن في تحريك الطعام في القدور.

تفوح روائح طيبة وأخرى تشي بجهل حقيقي. ويعلو صوت الرجال في نومهم اللذيذ؛ فتغلق عليهن النساء الأبواب. وبعد قليل تهدأ النار تحت القدور، وتخلع الزوجات المريلة المزركشة المتسخة. يضعن غطاء رأس كبيرًا، ويهبطن إلى أول الطريق في انتظار عودة الأولاد من المدارس. سيارات كبيرة ألوانها كثيرة تتوقف وتمضي. الأولاد يتقافزون ويسألون عن مائدة اليوم. الزوجات لا يجبن ويندفعن إلى البيوت تعجلا لموعد الغداء والقيلولة.

هكذا تنتهي «أم هاني» سريعًا من عملها؛ لأني لا أراقبها اليوم. وتقف عند باب البيت تتحدث قليلًا مع البواب قبلما تعبر الطريق لتنتظر الميكروباص المتجه إلى حلوان. أعرف أنها تعد الجنيهات العشرين جيدًا في أثناء نزولها السلم، وأنها تضع جنيهًا واحدًا في قبضة يدها بينما تدس الجنيهات الباقية في صدرها الواسع. تتوه الجنيهات بين كتلتي لحم لا يحملها مشد الصدر. أراقبها فقط وهي تعبر الطريق. وأتذكر أنها سريعًا تعود يوم الاثنين القادم. الثامنة والنصف صباحًا أفيق على رنين جرس مزعج. والعاشرة أكون لا زلت في شرفتي. ثم بعدما تمضي في الواحدة فقط، أغلق أبواب الشرفة فيسود صمت محبب في البيت. أسدل الستائر. أتأمل الموائد وأمسح عليها بيدي. خالية من التراب لكنها لا تعجبني. فالأركان بها آثار منشفة مبتلة. أطفئ الأنوار وأتجه صوب الحمام. حيث ينساب الماء فوق جسدي المتعب. أفكر في شهاب الدين الذي يعود قريبًا مع زوجي. وأقول: لحظة يعود أدخله الحمام، وأفتح

على رأسه ماء الصنبور. أتربة فناء المدرسة لا زالت عالقة بأقدامه لكني سأغض الطرف عن باقي تفاصيل الجسم، وأخضع لابتزازه وصراخه. أجفف جسدي بعد الحمام الدافئ (سأجفف جسده أيضًا حين يعود). أستلقي فوق الفراش نصف ساعة أخيرة. وأتحسس الموضع الخالي منه. كانت «دنيا زاد» تنام الآن إلى جواري هادئة وادعة. يبتسم ثغرها الوردي، وتبدو في انفراجة الشفتين سنة وحيدة صغيرة وبيضاء. أبتسم لأنها بدأت مرحلة التسنين مبكرة، وأفرح لأنها لا تبخل عليَّ من حين إلى حين بابتسامة كهذه.

يتكور بطني قليلًا. لا بد أن طفلًا مني يرقد الآن في تجويف الرحم. ليس له فم بعد. وليست له أطراف حقيقية. بعد قليل أباهي الجيران بملابسه الداخلية الناصعة حين أعرضها على الصفوف الأولى من الأحبال، ولا أهرب من «أم هاني» إلى الشرفة صباح كل اثنين. بل أقبع إلى جواره في غرفته المشمسة دومًا، وأداعب أنفه الكبير ويديه الناعمتين. تتسلل يدي إلى بطني حين يتسلل النوم إلى ملامح وجهي فيبسطها. وأحلم بأيام اثنين مشمسة. هل يولد هذا الطفل أيضًا في الخامس عشر من مايو القادم؟ أيكون يوم اثنين أيضًا؟ أتكون الغرفة ٤٠١؟ أيكون الوقت عصرا؟

الأبواب تفتح دائمًا عنوة. أفيق سريعًا من غفوتي. أغادر الفراش بخطًى ثقيلة، وأفتح الذراعين لأحتضن الولد الصغير. يجري نحوي شهاب الدين، وتجري خلفه مثل ظله دنيا زاد. ويجري خلفهما طفل صغير بلا ملامح. وتتشابك الأذرع جميعًا حول رقبتي. حين

يبسط شهاب الدين ذراعيه، تلتف ذراعي حول جسد وحيد نحيل فأملأ الفراغ الآخر بالرغبة.

أعطيه حياة ذلك القادم من بعيد؛ فلا يبخل عليَّ بقبلة حارة على جبينه. قبلة لم يتلقها أحد سوى هواء غرفتي. يلتقطها وجهه الآن. ويختزنها للأيام القادمة. حين ينفلت شهاب الدين، ينفرط عقد الأولاد الثلاثة. تطير «دنيا زاد» عبر ممرات وجدران البيت، وأتذكر شهاب الدين حين عرف أنها صارت نجما في السماء فظل يلازم شرفته كل مساء، ويعود الطفل الثالث إلى مستقره الأول ينتظر.

في غرفته يخلع شهاب الدين ملابسه. وعندما يلاحظ وجومي يقبلني بين عينيَّ، ويسألني: إنتِ بتحبيني قد إيه؟ ثم يردف بلا تردد: أكثر من الدنيا؟

شهاب الدين يحب سلمى

كنا جالسين عند طرفي منضدة الطعام. هو في أقصى الشمال. أنا في أقصى الجنوب. هو يرسم. أنا أكتب.

فجأة رفع بصره إليَّ. نظرة خجلى وابتسامة ماكرة. وصوت خافت يبوح: أنا شفت بنت حلوة النهاردة يا ماما.

شهاب؟ طفل الرابعة؟ تركت القلم يسقط، والتمعت في عينيَّ شموس فرح أكيدة: اسمها إيه؟

صمت. عدت إلى أوراقي بعقل مشطور. عاد إلى ألوانه الخشبية. يرسم نفسه دائرة كبيرة تتوسطها دوائر أصغر للفم وللعينين. ثم دائرة أكبر بكثير تتشكل جسدًا مترهلًا تتدلى منه ساقان مستديرتان أيضًا.

ـ اسمها سلمى (بعد حين).

ابتسامة مني، ثم ابتسامة منه. رقيقة مثل ذكرى وجه سلمى الذي ارتسم في الفضاء الفاصل بين نظرينا.

ـ سلمى؟ (لي صديقة بهذا الاسم).

ـ آه.. أنا دلوقتِ افتكرت (وربما لم ينس قط).

ـ كلمتها؟

ـ لأ (بضيق واضح).

هذه المرة يرسم سحلية من عصور ما قبل التاريخ، ويرسم ديناصورًا.

أقتل رغبة سؤاله في المهد. وأنتظر أن يبوح أكثر. هل هي من نفس الفصل؟ متى رآها أول مرة؟ ماذا كانت ترتدي؟ هل لون شعرها أسود مثل لون شعري؟ لماذا لم يتحدث معها؟ هل هي بنت طيبة، أم شريرة؟

ـ لما فتحت عيني من النوم شفتها قدامي (في حصة النوم إذن رآها).

حب من النظرة الأولى، ولا بد رآها في حلم ما، أو تصور وجهها حلمًا. شهاب الدين يحب سلمى دون أن يعرف.

ـ أنا بحب سلمى يا ماما!

ها هو يعرف. أحتضنه في قفزة واحدة من الجنوب إلى الشمال، وأقرر أن ألعب معه اللعبة حتى النهاية. قلبه متعب هذا الصغير. عليه أن ينتظر يومين آخرين قبل أن يراها ثانية.

يحاول الإفلات من أسر ذراعي. أجذبه إلى صدري كرغبة أخيرة في امتلاكه. يفلت أخيرًا بأعوامه الأربعة. بقلبه المثقل بصورة سلمى.

يفلت أخيرًا، ويعجب لضحكي ومرحي. يظنني أسخر منه. لكنه أيضًا مكسوف.

ـ أنا حتجوزك إنتِ يا ماما.

حل لا بأس به؛ كي يزيل إحساسًا مبكرًا بالذنب. لن يتركني لامرأة أخرى الآن.

ـ أنا متجوزة بابا يا حبيبي.

شعور بالارتياح يجتاح قسمات وجهه، ويعطر الجو برائحة انقشاع الغيم بعد هطول أمطار موسمية.

قررت: يوم الأحد القادم أذهب لإحضاره من المدرسة وأطلب منه أن يشير إلى سلمى. قال وكأنما يقرأ أفكاري:

ـ فيه اثنين سلمى في «الكلاس».

ـ اثنين بحالهم؟

ـ سلمى حلوة، وسلمى وحشة!

ـ وانت بتحب مين؟

ـ سلمى الحلوة.

ـ يبقى لازم تتكلم معاها.

مكسوفًا: مش عارف!

مثل أبيه تمامًا هذا الولد. انتظرت ستة أشهر قبل أن يعترف لي بأنه يحبني. ثم ستة أشهر أخرى قبلما يقرر زيارتنا في منزلنا. تذكرت

أن هديته الأولى لي كانت «لعبة» مثل رومانسية محبي التسعينيات عشاق الأفلام الكارتون!

ـ لازم تختار لها لعبة.

ترك الألوان والأوراق. أعجبته الفكرة. قفز من مقعده، وأمسك بيدي مسرعًا نحو غرفته. الألعاب جميعًا على الأرض. فوق الفراش. أعلى الصوان. اختار في البداية لعبة غالية: بيانو. رومانسي هذا الولد. ليس مثل أبيه، لكنه لا يعشق البيانو تمامًا على أي حال.

ـ دي لعبة كبيرة يا بوبا!

قذف بها فوق الفراش. كاد قلبي ينخلع.

ـ أختار إيه يا ربي بس!

نسيت أن شهاب من برج الجوزاء. ولمت نفسي لومًا. فات الأوان. ندخل الآن مرحلة الاختيارات الممكنة وغير الممكنة. ونقذف بكل الألعاب المرفوضة فوق الفراش. هذا كبير. هذا صغير. هذا أحبه. هذه هدية من خالو. أما هذا فلا يعجب البنات.

ـ هيَّ البنات تحب تلعب بإيه يا ماما؟

سؤال بديهي لم أطرحه من قبل على نفسي. منذ «دنيا زاد» لم أفكر أني سأنجب بنتًا ثانية، أو أني سأشتري لها عرائس قطنية، وعرائس أخرى غالية من البلاستيك الملون بلون الجلد الآدمي.

ـ بالعروسة، وبالحيوانات الصغيرة، وبالألعاب الموسيقية...

استرسلت في تعداد كل الألعاب التي تضمها غرفته؛ حتى يسهل عليه الاختيار. لكنه لم يكن سهلًا. اختار في البداية عروسة صغيرة اسمها كريم، ثم عدل عن اختياره، وقرر أن يمنحها عروسة كبيرة ترتدي بذلة خضراء وتشبه الإسكيمو، ثم عسكري خشب، ثم قاطرة، ثم سيارة بوليس، ثم علبة مكعبات. وفي النهاية ألا يعطيها شيئًا على الإطلاق.

ـ إنت الأول إتكلم معاها. لو كانت لطيفة.. هات لها هدية من مصروفك.

ـ هيَّ مش لطيفة يا ماما؟ يبكي.

ـ يا حبيبي أنا ما قلتش كده.. أرتبك.

ـ لأ، إنتِ قلتِ!

كان هذا حلًّا لا بأس به لإنهاء طابور الاحتمالات الخاصة باللعب، والدخول في طابور احتمالات أخرى أكثر تعقيدًا.

ـ أنا حلعب مع الأولاد بس.

قرار ثالث يقضي على المسألة من جذورها، ويتركني أعض أصابع الندم. الولد إتعقد، قلت لنفسي وأنا أحتضنه وهو يحاول الإفلات مني غضوبًا.

قضيت نصف ليلة في البحث عن اللعبة المناسبة لسلمى. والنصف الآخر في محاولة طرد شبحها الجميل من ذاكرة الولد.

يدور ويدور في البيت، وأحاول إثناءه عن التفكير فيها دون جدوى. هي تارة «جميلة ومش لطيفة». وتارة أخرى «جميلة وطيبة». وهو تارة سيشتري لها من مصروفه بسكوتًا. وتارة أخرى يوليها ظهره في الفصل وكأنما البنت عدوته اللدود.

لا بد أن سلمى الآن نائمة في فراشها الصغير. ولا بد أن أسنانها إن ابتسمت لا تنتظم. ولا بد شهاب يغير رأيه حين يراها تبتسم. ويكف عن اعتبارها أجمل بنت في الفصل. لا بد كي يهدأ الولد أن يأخذ حمامًا دافئًا. ولا بد أن أحكي له قصة الفيل جميل والتمساح عبد الفتاح. ولا بد وهو يغمض عينيه على صورة سلمى أن أذكره بموعد الغد في حديقة الحيوان مع السيسي الذي يدور في حلقات حول الفيل والجمل والحصان. لكن موعد الغد لا يمحو الصورة تمامًا. فأشعر به وسط الليل يتململ. ويتذكر البيانو الصغير. أهزه قليلًا فيحتضنني. وتترسخ بيننا، سكرى، صور الحب الأول.

اختبارات حمل

... هكذا قيل لي: لا بد أن تصنعي طفلًا جديدًا.

انمحت صور «دنيا زاد» من الذاكرة. لم يبقَ سوى لونيْن. الأزرق وجهها، والأبيض أكفانها. وقريبًا لا تبقى سوى ذكرى باهتة عن درجة ما من درجات الأزرق. والفم الهرمي الشكل. والعينيْن المسدلتيْن ككل الأفواه والعيون المشابهة.

يجب أن تعيش قصة موت وتكتبها في رغبة خالصة لاستبقاء الذكرى. يجب أن ترى وجه وليد مختنق لتدرك أن كلمات الأصدقاء ودموع الأقارب عبث أكيد. رحلت «دنيا زاد» إذن مرتين. منذ ستة أشهر قررت الرحيل بشكل مأساوي. ومنذ أيام قالت إني سألد بنتا ثانية لا تشبهها. (هذه المرة تحيا؟)، ثم عاودت الرحيل.

قلت: الأطفال لا أصنعهم هكذا بقرار ليلي. الأطفال أصنعهم في لحظات حب نادرة. وعندما يتبين لي أن هناك خطين بارزين

في اختبار الحمل، أعرف أني قد تجاوزت القلق إلى اليقين باكتمال الأشهر التسعة. خطيْن اثنيْن (أنت تحملين نطفة من دمائكما).

كان هذا منذ زمن. الآن أصنع أطفالا بحسبة بسيطة: في اليوم الرابع عشر أنتظر بويضة صغيرة تستقبل أولى علامات الوجود. أنتظر كل ليلة تتلو الليلة الرابعة عشرة، وأفتح مسام جسدي للتلقي. سؤال وحيد يدور في رأسي حين ينفض ميقات الليل. هل حدث فعلا؟

* * *

أحمل نطفة، ثم علقة.

اختبار الحمل الأول: في باريس. مائة فرنك فرنسي. في الصباح الباكر تنبئني العلامتان بأني أحمل «أول أطفالي الستة». أرسل صورة طفل أوروبي لأمي، وأنصحها بأن تشتري فراشًا صغيرًا بحيطان أربعة وقضبان. أعود وقد تكور بطني. تستقبلني عائلة كبيرة في المطار، في لذة الانتظار. هكذا جاء شهاب الدين. ونجحت في اختبار الأمومة الأول.

اختبار الحمل الثاني: في القاهرة. الثمن بخس. وسعادتي لا يضاهيها سوى قلق حقيقي بأن ألد ولدًا ثانيًا. هذه المرة أتوق لصورة بنت صغيرة ضفائرها تتدلى على ظهرها والمريلة الكحلي. أشتري ملابس رقيقة موشاة بالورد الصغير الملون. وأعد فراشًا صغيرًا يلائم الجسد النحيل. أرى صورة من جسدها المتخيل على الشاشة. ثم أراها حقيقة ميتة في فراش يضيق بي، في غرفة لا تتسع للموت.

اختبار الحمل الثالث: القاهرة أيضًا. زاد الثمن جنيهًا واحدًا.. والعلامات اثنتان. أغص بندمي. وأتقدم بالخطو المتردد في الممر حتى أصل إلى صندوق القمامة. أفتحه دون أن أراه، وألقي بالاختبار الثالث. الآن أصنع طفلًا يقضي على كل هواجسي. تمر سنة واحدة بين الاختبارين والهوس القديم يعاودني. طفل صغير قطيفي الملمس. ووجه يشرق بنظرة العينين. طفل تعويضي يقرأ هذا الكلام يومًا ويكرهني.

في كل مساء من المساءات الثلاثة بكيت. أحمل حياة غير حياتي داخلي، رهبة وامتنانًا للقادم الجديد. الحزن أيضًا جزء من منطق الأشياء. لكن الندم في المساء الثالث هذا يفوق كل خوف. كل لهفة. هذه المرة أحمل حياتي أيضا بين كفيَّ. ماذا لو اضطررت للرحيل المفاجئ؟ دون مقدمات كما حدث لي عند ولادة «دنيا زاد»؟ العلامات تقول إن لعنة قد حلت بجسدي. وإني غير قادرة على المنح بعد اليوم. اللعنة تقول: ابن وحيد وما يتلوه للقبور يعود. حلم الأطفال الستة ينقص الآن طفلًا. ولد ولم يولد ولم يكن له مثيلا أحد.

أصنع طفلًا ثالثًا. أحمله نطفة ثم علقة. أرى صوره على الشاشات، وأحبه كما ينبغي. لكني لا أحبه أيضًا كما ينبغي. قد يأتي حقًّا. وقد أحتاج لاختبار حمل رابع إذا ما فشلت المحاولة.

لا يكفي أن أكف عن البكاء كلما رأيت طفلة في شهرها الخامس. يجب أيضًا أن أقضم رغبتي الصارخة في تقبيلها.

لو كانت بنتًا..

على الهاتف كان صوت الطبيب عطوفًا. قلنا لنملأ فراغًا يشوبه التوتر: رأيتك في اجتماع نصر أبو زيد الماضي... آه، نعم... أحاول الذهاب من وقت لآخر. ثم قلت سريعًا قبل أن تفتر العاطفة والترحاب: أريد تقريرًا عن ولادة «دنيا زاد». من؟ أريد تقريرًا عن ولادتي الأخيرة. أسافر قريبًا. طبعًا طبعًا. كل شيء مسجل على الكمبيوتر.

فرحت لأن بعض تفاصيل أخرى مسجلة في مكان ما هناك. لن أفهمها، لكن يفهمها آخرون.. أطباء ومتخصصون. كما أني شاهدتك في التلفزيون الأسبوع الماضي... هو متخصص في علاج العقم. ولم أكن أكذب هذه المرة. شاهدته بنفس الصوت الرقيق يتحدث عن إمكانات العلاج. ويضع رباط عنق. ويحاول ألا يرمش كثيرًا كعادته، وتذكرت في تلك اللحظة أن طبيبي هذا لا يأكل اللحوم. نباتي. كرهت أن أكذب على صوته الدمث وأدعي السفر. لكني كنت راحلة على أي حال.

* * *

في عيادة طبيب آخر. اسمه «شريف» كأسماء الأطفال عندما كنا نحن أطفالًا. على الحائط بعض الصور. كلهن أوروبيات، وكل الأطفال كعرائس البلاستيك الملونة. شعور صفراء وعيون زرقاء وثغور وردية. نهود الأمهات صغيرة ولينة عند ملامستها الخد الصغير الناعم. تحت الصورة تجلس سيدة سمينة. لا تحمل في بطنها طفلًا وإنما آثار ولادات عشر على الأقل. تضع غطاء رأس

أسود ينسدل حتى نصف جلبابها الأسود. وتلوك بنظراتها الوجوه والمقاعد الشاغرة والباب الموارب. تحت صورة أخرى، رجل وزوجته طويلان كتماثيل الفراعنة، أكتاف عريضة ورقبة طويلة ورأس صامت، فجأة تعبره ابتسامة حين يتحرك طفل صغير هناك، ويطلب من أمه الملولة كوب ماء. أما أنا فأحمل حملي هكذا وأنتظر. الموعد الثامنة مساء. الساعة الثامنة والنصف والطبيب غائب في حجرة الكشف مع فتاة جميلة بطنها صغير متكور. تحمل هي حملها الأول. وأنا أحمل حملي الثالث وأنتظر.

إشارة من الممرضة... تقول: اتبعيني. في حجرة صغيرة ملحقة بحجرة الطبيب تقيس الضغط وتحسب الوزن. وترسلني كذبيحة صغيرة سابقة التجهيز إلى الحمام الملحق لعمل اختبار جديد.

زوجي ينتظر صامتًا في الخارج.

في الحمام الذي أتعرف على ملامحه الآن، أتذكر أن الحوض في عيادة الطبيب الأول كان مختلفًا. كل شيء هنا مختلف. الزحام أقل ربما والحوائط أكثر بياضًا. والممرضات اثنتان فقط. والطبيب اسمه اسم طفل والناس غرباء. كل شيء يلفظني. للوهلة الأولى وبعد تفكير لم يدم أكثر من ثانيتين، قررت أن أسحب زوجي من يده وأخرج به إلى الشارع. ثم قلت بعد تفكير أطول: ننتظر ونرى.

* * *

لم أكن أحتفظ بصورة ناصعة للغرفة ٤٠١ في المستشفى القديم. كانت الصورة قاتمة، والستائر المسدلة تزيد من قتامتها. ثم ملامح «دنيا زاد» التي بدأت تغيب من وجه السماء كلما تطلعت إليها، ويحل محلها إحساس بالشفقة. لم أكن أتخيل أعتاب المستشفى في لحظة دخول جديدة. حين اجتزتها منذ شهور، كان رجل الأمن يتابعني بنظرة متفحصة، وربما أيضًا مواسية. لكن نظرته التي حفرت بعض علاماتها في ظهري لن تطالعني بعد اليوم وجهًا لوجه. لن تختلط نظراتنا في لحظة ولادة جديدة قادمة.

إشارة ثانية من الممرضة الصامتة... تقول: ادخلي. حجرة الطبيب هادئة، تفتح على بابين آخرين، على كل جانب من جوانب المكتب الكبير. كمبيوتر يحتل جزءًا من المكتب (ما الذي يسجله هذه المرة؟). جلسنا أنا وزوجي متواجهين. ترك لنفسه إمكانية التوتر في غيبة الطبيب على أن يتماسك في حضوره. أطرقت قليلًا. أستجمع بعض شجاعتي في صمت الغرفة الذي تهدهده وشوشة التكييف. دخل الطبيب أخيرًا وكانت ابتسامته أيضًا ابتسامة طفلة. جلس ونظر لكلينا ففقد شيئًا من بريق ابتسامته. بدأت أنا بالحديث. لا أذكر الآن سوى صوتي المتهدج ورغبتي الملحة في البكاء بين يديه كأنما لأشكو له عجزهم جميعًا عن إنقاذ ابنتي. وربما لأدعوه إلى إنقاذ طفلي القادم وكأنما هو ميت ميت. لاحظ زوجي تخبطي في الكلام. بحث عن الكلمات المناسبة علميًّا وأكمل الحكاية.

كانت ابتسامة الطبيب الآن قد حل محلها تعاطف عميق وقلق خفي ـ لا بد أن إحساس العجز قد انتقل إليه أيضًا. وراح يسأل عن تفاصيل أخرى. قلت له إني طلبت تقريرًا من طبيبي الأول. ورجوته ألا يخبره عني. فهو في النهاية طبيب العائلة، كما أن شعورًا بالذنب يزعجني ـ لم أكذب على طبيبي من قبل، وهأنا الآن أخونه مع طبيب آخر!

* * *

الدكتور «شريف» يتحدث الإنجليزية والألمانية والفرنسية بطلاقة. لم يتعدَّ الثامنة والأربعين. يضع نظارة طبية وليس له شارب. عاش في ألمانيا عدة سنوات. يقول بين لحظة وأخرى: «يا أفندم» كأنما لتكتسب جملته موسيقى ما، غائبة من خطاب الأطباء العاديين. هو شديد الدماثة، شديد الرقة، شديد الألفة أيضًا. تحبه الزوجات من النظرة الأولى. ويرتاح إليه الأزواج؛ لأنه لا يبدو «دون جوان». طويل القامة، يدعوك دائمًا لغرفة الكشف منحنيًا إلى الأمام قليلًا. ويمارس عمله بلياقة كبيرة، بمساعدة الممرضة. جملته قصيرة عادة، والكلمات تندفع بسرعة نسبية مختلطة بتعبيرات طبية إنجليزية اكتسبتها بالخبرة من الحملين السابقين. لذلك فقد بدوتُ في نظره ذات ثقافة، وكاد يحدثني أيضًا بالألمانية لولا أني أكدت له أني أتحدث الفرنسية، وأقرأ بها كتبا عن الأطفال والولادة.

* * *

عبرنا أحد البابين إلى غرفة كشف صغيرة بها شاشة وسرير - وضعت الممرضة على بطني بعض المواد الدهنية رائحتها طيبة. ووضع الطبيب على بطني جهازًا صغيرًا أسود اللون. هكذا ظهرت صورة الرحم على الشاشة. وبزرار التكبير استطعت أن أرى نقطة صغيرة تلتصق بالتجويف الأسود وتنبض بانتظام. هذا هو الجنين. طوله وعمره لا يتعديان عشرة أسابيع. قال الطبيب: كل شيء على ما يرام. ثم قال: يلزمكِ بعض التحاليل.

كنت لا زلت أحبس دموعي حين عدت إلى زوجي في غرفة المكتب... وكان وجهه ممتقعًا. لا تزال عليه آثار الحكاية. طمأنته بابتسامة واهنة. ولم أكن أشعر بالفخر لأني أحمل طفلًا جديدًا، كما تعودت. استقمت على الكرسي أمامه وتحاشيت النظر إليه ثانية. قلنا بصوت منخفض: جميلة هذه المكتبة. لا بد أنها مصنوعة من الأرو. جلس الطبيب إلى المكتب ودوَّن ملاحظاته على ورقة سميكة مقسمة إلى خانات. شرح لنا كل كلمة دوَّنها. وأعطانا ورقة مشابهة نحتفظ بها معنا، ونأتي بها عند كل كشف لنستكمل البيانات. كل شيء مسجل بانتظام. كل شيء له تاريخ.

على الشاشة كان قد أشار إلى المشيمة وقال: هذه هي المشيمة.

* * *

سرنا جنبًا إلى جنب في الشارع الضيق المزدحم بالسيارات الكبيرة. كنت مطمئنة الآن إلى هذا الطبيب الجديد. وقلت لزوجي

كأنما لمفاجأته: لديه جهاز خاص يضعه على البطن في أثناء الوضع لمعرفة حالة الطفل وطبيعة التقلصات وكل شيء؛ كي لا يحدث موت جديد. ولم أكن أصدق تمامًا أن هذا ممكن. والمشيمة هذه، بعد انفصالها يموت الجنين في دقيقتين اثنتين! ربت على كتفي ونحن نعبر الشارع، وقررنا أن نصل البيت سيرًا على الأقدام. الهواء يطيب في الليل. والناس قليلون في الطرقات، وفروع شجرة جديدة تنمو في رحمي دون إبطاء. تذكرت الآن أن الطبيب أكد لي في أثناء الكشف أن هذا الجهاز لا يمنع الموت. لكني ابتلعت تحذيره وقلت لزوجي باقتناع مصطنع: كل شيء يصبح على ما يرام. ثم سألته في مرح زائد: لو كانت بنتًا فماذا نسميها؟



نقطة تحول

بعد مضي شهور، كنت قد كتبت كتابًا جديدًا وقدمت استقالتي من عملي الحكومي، وخاصمت عددًا من صديقاتي، وشربت السيجارة السادسة في حياتي، وقررت أن أنجب طفلًا ثالثًا يتحرك الآن في جوفي، كما أنني تشاجرت لأسباب تافهة، وكدت أصدم رجلًا بسيارتي في الطريق العام، واشتريت أشياء كثيرة، واستأجرت خادمة جديدة، وأقمت مأدبتين للأصحاب، وزرعت حوض زهور جديدا في الشرفة. ثم إنني شاركت زوجي بيع بيت العائلة، وشاركت شهاب الدين تجربة الحب الأول والاستيقاظ في السابعة للذهاب إلى المدرسة. وتجنبت كعادتي الحديث مع الجيران لكني أعربت عن سأمي الشديد من البواب الجديد الذي لا يغسل السيارة جيدًا، ومن الخادمة الجديدة التي تكسر صنبور الماء في الحوض الصغير (كل مرة)، ومن أم زوجي التي تكثر السؤال عن تفاصيل كل شيء، ومن زوجي نفسه الذي صار كل صباح يربت على مؤخرتي قبل أن يغسل أي منا وجهه وأسنانه.

أفكر كل يوم في بعض التفاصيل، وأسقط البعض الآخر من حساباتي الدقيقة. أتابع في حرص سريان الدماء في عروقي المنتفضة على جانبي الجبين، وأتخيل أني مصابة بلوكيميا (هل يسري المرض الآن في نطفة هذا الطفل الثالث الذي أنتظره دون حماس كبير؟ ماذا لو أصبت حقًّا بلوكيميا؟).

صرت الآن أثير غضب زوجي. ترك المنزل ليلتين وعاد. أعطاني خطابًا طويلًا. قرأته وبكيت، في رقة الهواء القادم من النافذة. لا زلت إذن أشعر بمشاعر طيبة تجاه الأشياء رغم بروز عظام فكي وأنيابي. صور من لقاء دراكولا أو مصاص الدماء (لا أذكر أيهما) تخنق في صدري بعض الدموع الباقية. أشعر بالخوف وألتفت ورائي. على الحائط الأبيض فيلم رعب أمريكي.

صور من الفيلم: الزوج يقترب من زوجته. هي لا تراه. مشغولة بحياكة ثوب قصير لابنتها. يغرس في عنقها أسنانه النهمة. تتحول الزوجة الجميلة إلى شبح أبيض هاربة دماؤه.

صور أخرى ممكنة: الزوجة تغرس أسنانها بدورها في رقبة ابنتها التي لا تستغيث بالجيران، فالقصر معزول عن العالم والأشباح تلهو في الحديقة الخلفية.

صور من فيلم آخر: الأشباح لا تتزاوج. لكنها لا تشعر بالسأم. فهي قادرة على اختراق الحجب. على التحليق فوق القلعة المسكونة. وأيضًا على الغناء في ظلام الليل بصوت شجي.

قادرة إذن على السأم، قادرة على «العربدة» وسط الأصحاب الذين يعرضون عليَّ سجائر خبيثة المقاصد، على تصور أفلام الرعب دون أن أشعر بالرعب حقًّا، وعلى إعداد شهاب الدين وحدي ليذهب إلى المدرسة كل صباح، قادرة على التمرد واللامبالاة والاختيار والاشتراك في القرارات المصيرية دون أن تدمع لي عين أو يهتز لي جفن، قادرة على حبس الدموع في المآقي عندما تطالعني النتيجة برقم ١٥ أو بيوم اثنين، على حين غرة ودون استعداد مسبق لتلقي الذكرى بين نهديَّ كالخنجر المسنـون. قادرة على السأم أخيرًا. كل شيء إذن مباح، كل شيء بلا أهمية حقًّا. أكتب الآن سطرًا آخر لإنهاء الصفحة. ثم أدس قدمي في الخف الأسود. أطفئ الأنوار بحركة مسرحية. أستلقي على الفراش بجوار زوجي النائم. ولا أنصت لصوت أنفاسه. ولا لصوت أنفاسي. فغدًا نصحو على سأم جديد.. لا ريب.

* * *

... عندئذ يقال: «هذه نقطة تحول». في فضاء شاسع من نقاط أخرى أكثر أو أقل استدارة. تدور في أفلاك ذاكرة لا تحفظ إلا القليل. كجزئيات مجرات فنت حين تحللت. نقاط تحول كثيرة. في مراحل كثيرة من العمر القصير.

يتثاءب الكون فتخرج من فمه أزمنة ووجوه وبعض روائح وصور منسية تتخذ لنفسها مسارات متعرجة في اللا نهاية. عندئذ أيضًا يقال: «كل شيء يحدث بتدبير».

تصاريف حياة غريبة لا يهتدي فيها سوى فاقد البصر.

نقطة تحول عند حافة الموت تفقد بعدها قدرتك على الاهتداء إلى الطريق بمجرد النظر. فتغمض عينيك. وتبسط ذراعيك. وتدور في فلكك المرسوم لعلك تهتدي. فإن اهتديت قيل: «نقطة تحول».

* * *

هذه آخر الكتابة.

على موعد مع الطبيب بعد أسبوعين.

ولي صاحبة جديدة أسميها «عُلا»؛ لأنها أيضًا (طيبة).

كما أني أغلقت بابًا مفتوحًا منذ سنين في وجه صاحبتي القديمة. التي لم أعد أسميها حين فقدتُ الإحساس بوجودها، وحين نسيت هي الطريق إلى بيتي.

لا زلت أسكن إلى ذراعي شهاب الدين الممدودتين دوما.

ولا زلت أكتب. وقد ادَّعيت أنها آخر الكتابة.

صديق يموت. وصديق يروح. وصديق يتلاشى وسط تفاصيل حياة مكرورة. وأصدقاء لا أكتبهم لأنهم حاضرون. وأصدقاء لا أكتبهم لأنهم بخلاء. وأبناء ستة أحلم بهم. وابن وحيد يلفه هاجس الموت أينما حلَّ. ما الذي تبقى من أفلاكي ومجراتي الهائمة في فجوات تاريخي الشخصي الآن؟

* * *

زوجي لا أسميه. له عينان ناعستان. ووجه تبرز وجنتاه كتماثيل آلهة قدماء. وجسد جميل. زوجي يتشاجر معي أحيانًا لكن صوته لا يعلو إلا نادرًا. عندما ترك بيتنا منذ أسابيع. عاد وعاتبني بالفرنسية. عندئذ بكيت وأحببته ولم ألمه؛ لأنه أيضًا أبو دنيا زاد وشهاب الدين.

ليل الشتاء قد حلَّ. وحلت معه الأفكار السوداء. لكني أعيد تقديم حساباتي لآلهة الزمن التي لم تولد بعد.

وجه صاحبتي القديمة يقفز من فتحة زجاج النافذة. أهشه بحركة خفيفة من رأسي، وأضع بدلًا منه صورة يهوذا. هكذا، أستطيع تأمل الصورة، وفلسفة التاريخ.

* * *

هذه خاتمة تليق بلحظة حداد متأخرة. أكتب «دنيا زاد» وأستعين على حروفها بالنسيان. تعلق وجهها المستدير وعينيها المسدلتين فوق رأسي. وتبدأ في الدوران في فلك معلوم. يمنحها الخسوف توهجًا بين الحين والحين. وأعود معها طفلة بلا ضفائر. تدور فترسم حدودًا لما قبلها وما بعدها، وما عداها أفلاك تتخبط فيها وجوه أخرى قبل أن تنتظم في دورانها المرسوم.

لحظة حداد أخيرة. لكل هؤلاء الذين سقطوا في بئر التحول. وماتوا.